لَمْ أَعُدْ هُوَ هُوَ

مجموعة قصصية

محمد حامد

دار المحرر الأدبي

لا أحد يعبر الجسر

قصص قصيرة

محمد حامد

دار المحرر الأدبي

. . . . . وكان صاحبي كلما سئم تكاليف الحياة، وضاق ذرعًا بمعاشرة الناس، التمس الراحة فيما تيسر له من أمور ثلاثة: العزلة، والطبيعة، والماضي البعيد.

أما العزلة فتفرغ عليه هدوء السر: وراحة البال: ثم هي فوق ذلك تهيئ له أسباب التفكير في نفسه، وتعينه على أن يستعرض عمله، وأن ينقده في تؤدة وأناة. وصاحبي شديد الأخذ لنفسه. مسرفٌ في تعهدها ومحاسبتها على الصغيرة والكبيرة، فربما بات ساهرًا متململاً لبادرة بَدَرت منه، أو زلّة زلها لسانه. وهو بعد حريص على راحة ضميره وطمأنينة قلبه. فإن استطاع أن يقيم علاقته بالناس على أساس من العدل والإنصاف فذلك، وإلا فليكن المظلوم غير الظالم والمقتول غير القاتل. من أجل ذلك كانت العزلة كثيرًا ما تفتح عليه باب ألم معنوي شديد، بيدَ أنه ألم في شرعه محتمل مستعذب، يصلَى ناره، راغبًا ويخلُص منها مغتبطًا راضيًا.

لا أحد يعبر الجسر

قصص قصيرة

محمد حامد

دار المحرر الأدبي

. . . . . وكان صاحبي كلما سئم تكاليف الحياة، وضاق ذرعًا بمعاشرة الناس، التمس الراحة فيما تيسر له من أمور ثلاثة: العزلة، والطبيعة، والماضي البعيد.

أما العزلة فتفرغ عليه هدوء السر: وراحة البال: ثم هي فوق ذلك تهيئ له أسباب التفكير في نفسه، وتعينه على أن يستعرض عمله، وأن ينقده في تؤدة وأناة. وصاحبي شديد الأخذ لنفسه. مسرفٌ في تعهدها ومحاسبتها على الصغيرة والكبيرة، فربما بات ساهرًا متململاً لبادرة بَدَرت منه، أو زلّة زلها لسانه. وهو بعد حريص على راحة ضميره وطمأنينة قلبه. فإن استطاع أن يقيم علاقته بالناس على أساس من العدل والإنصاف فذلك، وإلا فليكن المظلوم غير الظالم والمقتول غير القاتل. من أجل ذلك كانت العزلة كثيرًا ما تفتح عليه باب ألم معنوي شديد، بيدَ أنه ألم في شرعه محتمل مستعذب، يصلَى ناره، راغبًا ويخلُص منها مغتبطًا راضيًا.

وأما الطبيعة، فهي عنده الأم الرؤوم: إليها يستريح ويسكن، ومن جمالها ينهل ويَعِلُّ، وفي حجرها تنبعث نفسه المجهودة، وتهيج عاطفته المكدودة.

قد فتن بالطبيعة وحياة الطبيعة، حتى ليكاد مزاجه يساير فصول العام انبساطاً وانقباضاً، وابتهاجاً واكتئابا، ولولا بقية إيمان لأنقلب صابئًا يسجد للشمس عند شروقها وغروبها. ويهتف للقمر حين بزوغه وأفوله، ويساهر النجوم والأفلاك من طلوعها لمغيبها. ولصار حلوليًا يرى في ثنايا الجبال وأهضاب الأودية وفي الأجمَّة الملتفة والصحراء البلقَع، جنًا تراءى له في غدواته وروحاته، ولفتاته ولمحاته، تحاول أن تستدرجه لتستهويه، وتستميله لتفتنه، أجل! ولولا أثارة من تماسُك وتصاون، لحَنَا على النبتة الواهية، ولكبر للدوحة العالية، ولأجهش للصخرة الراسية على ساحل البحر المتغلغل: ولا ندفع بقول الشعر يساجل الطير: لحنًا بلحن وتغريداً بتغريد.

على أن صاحبي ليس بالناسك ولا الزاهد. وقد يكون في قرارة نفسه، وحقيقة أمره، مرحًا طروباً، ويود، على شدة انصرافه عن الدنيا؛ ألا ينسى نصيبه منها، ولكنه متزمت متشدد؛ يريد للقوم صفواً من النفاق والدهان، خلوا من الحقد والاضطغان، فأما وقد أعجزه ذلك؛ فقد أصبح يرى ضالته المنشودة في الغابرين الأولين من أهل القرون الخالية: أصبح يراها في الماضي البعيد، والماضي عنده عالم حافل بأعلامه وأحداثه، زاخر بخيره وشره: لا عيب فيه سوى أن القدم قد صهره ومحصه، وأن الموت قد نفى خبثه عن طيبه، وزغله عن صميمه، فبدت فيه كل نفس على حقيقتها، ومثَّل كل حادث على جليته، من أجل ذلك اصطفى صاحبي من الماضين خلانًا وأصدقاء، قد أصفاهم الود، وأخلص لهم الحب؛ وأن اختلفت الدار، وبعد المزار؛ لقد أدرك صاحبي أن الموت حق والحياة باطل.

تكالبت الهموم هذا الفيلسوف يومًا، فخرج من منزله، وقد طفلت[1] الشمس للغروب، فما زال يتخير الأمكنة

[1] تطفيل الشمس: ميلها للغروب

والبقاء؛ حتى آوى إلى صخرة قد استقبلت بحراً خضما، واستدبرت مرجًا معشوشبًا مدهاماً؛ وفي شرقيها المدينة هائجة مائجة؛ صاخبة داوية؛ وفي غربيها قصر عتيق مثلم الجنبات متداعي الأركان.

فأخذ الفيلسوف مجلسه من ذلك المنظر الفخم؛ وجعل تارة يسرح الطرف في البحر الواسع؛ فتطير شعاعًا فوق صفحته أشجانه؛ وتذوب في هدير أمواجه آهاته وأحزانه، وتارة ينثني نحو المرج يداعب منثور زهره؛ ويتسمع سجع طيره، وأخرى يلتفت إلى القصر يسأله أخبار من نزلوه ثم ارتحلوا عنه، وكانوا أحاديث. حتى إذا ما ارتوى الفيلسوف من نسيم البحر؛ وعبير الزهر، وحديث القصر؛ تناول هراوته، وزر معطفه، وعاد يؤم المدينة متثاقل الخطى، مردداً قول الشاعر:

أن الطبيعة أم نستجير بها من جانب للبرايا غير مأمون!

هذا العذاب. . .

دخل الغابة ينشد الوحدة الهادئة الهادية، فرآها أول ما رأى في صمت الجذوع وتحملها، ثم تمثلها عند تساقط الأوراق واستسلامها، وفي السكون الشامل الذي يحيط به، وفي اللون الأخضر القاتم الذي يغشاه، ثم سمعها في أنين الغابة الداوي، ولاقاها عند الغدير الصغير الجاري، ورآها في قاع مجراه الصافي كامنة بين الحصا الأبيض الناعم، ثم شاهدها في تهدل الأغصان واضطرابها، وفي رعشة الأوراق المتحيرة ذات الحفيف المحزن، ووجدها ساكنة في الأعشاش الخاوية، ولمحها عالقة بأجنحة الطير المتثاقلة وهي تبيت. وفي آخر أشعة الشمس الصفراء وهي تغيب.

جلس في تلك الظلال القاتمة وحيداً بين الشجر، ينظر إلى السماء الناعسة يستنجدها وحيها المهيب. أو يستودعها سره العجيب. وقد بدت فروع الأغصان مع الأوراق على صفحة السماء وقت هذا الغروب في لون من سواد كئيب،

كأنها (دنتلة) الحزن على صدر أملس رائع أسيف. قد صبغته نيران الزفرات والتنهدات بلون الشفق الوردي الهادئ صدر واسع عميق جذاب تحنو عليه شفاه الرحمة والإشفاق بقبلات العطف والحنان تترك فيه آثاراً من حرارة التضامن الكامن في الصدور بين قلب حنون وآخر محزون.

لم يفكر في شيء، فقد أحاطت به الأفكار من كل جانب، قام هارباً من تهافت الأفكار متعمقاً في الغابة يطلب الهدوء الأصيل في حضنها الظليل، ومن هاجمته أفكاره أعجزته تفكيراته، وقد يضيع بها أو يبقى بينها حيران زماناً حتى تجذبه إحداها فتشغله عن سواها، وهكذا يفر المرء من عذاب إلى عذاب.

على أنه وقد وجد سكينته عند الطبيعة فقد سلبهَا منه وآله فيه ابن الطبيعة، طلع عليه من خلال الأشجار أطفال يلعبون، والناس ملائكة صغاراً شياطين كباراً.

كَمنَ له الصغار لما رأوه مقبلا هائماً، انتظروه إذ ظنوه سارحاَ هادئاً. فاجئوه يحسبونه خائفاً، فلما وجدوه رابطًا

ثابتا، عادوا يخشونه متحفزا ثائراً. ثم تنبه هو من تيهه فوقف باسماً، يدعوهم لاعبا مسالماً ضاحكاً، ولكنهم من الرجفة الأولى يفرون مستنجدين صارخين. فأنجدهم أهل لهم في الغابة يحتطبون، يسألونهم عن أمرهم وما دهاهم من مفترس أو روح شرير، فكانوا يبكون صامتين، يشيرون إلى مكان قريب.

مفترس! وحش! روح شرير!!

ليس في المكان إلا ما في الغابة من شجر ووحشة ودوي طويل. خرج عليهم (الوحش) يدعوهم إلى الهدوء والاطمئنان. فتلقوه مؤنبين معرضين، فتولى عنهم في غيظ وكمد. مختفياً في الغابة الممتدة الواسعة. تلك الغابة العنيدة التي هو سيدها ومالكها والتي يهبها صدقه يسمح بحطبها وحياتها ومتاعها حلالا طيباً للسائلين والمحرومين.

أقبل على الغدير الصغير، وهنالك أمام خرير الماء الطاهر البريء، الجاري من الأزل إلى الأبد، وقف في إطراق وصمت وتسليم قليلاً ثم نظر إلى العود الذي يتوكأ عليه.

وهو من حطب الغابة، وكتب به في بطء ولين وتفكير كلمات لا شك أنها ذاهبة مع الماء في مجراه. . ثم اتخذ سبيله عائداً إلى البيت الذي يأويه وكان قد هجره بمن فيه وما فيه.

وإذ هو يمشي وئيدا كئيباً وقد طواه غسق الليل، أبصر المحتطبين خارجين من الغابة فرحين محملين وهم يذكرون الوحش المفترس والروح الشرير. . .

تثور نزعاته تطلب لوجودها جهراً. ولكنه يكظمها في نفسه صبراً، ثم تفور عواطفه فوراً. فيحبسها في صدره غوراً ثم يسرع الخطى على غير هدى قليلا حتى يدله الألم الساري وسط ظلام الحياة على حقيقة عذاب الإنسان للإنسان، ومكان الإحسان عند الإنسان، وأن الجهر بالإحسان إحسان. .

ثم يذكر ما كتب على صفحة ذلك الغدير الصغير، ويردده في ألم وثورة وأسف، حقاً إن في صمت الإحسان جنة للناس وعذاب للمحسنين. .

هل كان حبهما خطيئة. ؟

أصحيح أنني ألقيت بهذا اللون من الرسائل الحزينة ظلالا شاحبة كئيبة على حياتك الباسمة بين أحضان الريف. وتحت سمائه الصاحية الجميلة. فإن يكن ذلك حقًا؟ وأنك قد أصبحت تضيق ذرعًا حتى بهذا القدر التافه من العزاء الذي أجده في الكتابة إليك ترويحًا لقلب عان ونفس ثائرة مضطرمة، فقد ينبغي لك أن تعلم أن الشجرةً التي انتصبت في الفضاء، تهزأ بالأعاصير والأنواء. ساخرة متحدية. حتى عريت من أوراقها وتحطم الكثير من أغصانها، ما يزال في جذعها الضخم العنيد، وأعراقها الراسخة القوية، ما يعينها على الصبر إلى نهاية المعركة، حتى ينجلي ليل محنتها قليلاً قليلا. ثم يطالعها في أعقابه فجر باسم حالم، ينبت فيها أوراقًا بأوراق، وينشئ لها أغصانا بأغصان. ويومئذ تفيء الطيور إلى ظلها الوارف الظليل: لتملأ هذه الأجواء الحزينة شدوا شجى النغم حلو الرنين، يعيد إلى هذا القلب الذي هانت عليه آلامه فيضا دافقا من حلاوة المنى ولذة الأمل. وإذن فسأحتجن هذه

الآلام من دونك بعد اليوم في صدري : فما يـزال فيـه قـدرة على احتمال المزيد منهـا . وسـأدير الحـديث إليـك في هـذه الرسالة حول شخص لا تعرفه ، قد آخت بيننـا سـهمة مـن الألم المشترك ، وسأنفض إليك جملة حاله وجماع قصته علني أقف منك على رأي تراه له ، لأنني ـ وأنت تعرف رأيـي في المرأة ـ تحرجت من إبداء رأي قد يفسده مـا أحسـه اليـوم في قلبي بسببها من جراح وندوب .

انحدرَ إلى هذه الدنيا وحيداً لأبـوين رزقـاه علـى وجـد للبنين بعدما كادت الأيام تشرف على ربوة العمر . فتهيأت له من هذه الناحية طفولة ناعمة مدللـة أسـلمته إلى دار مـن دور التعلـيم جعـل يتخطـى سـني دراسـتها غـير وانٍ ولا متخلف ، حتى وصل إلى السنة الثانية مـن دراسـته في كلـية الحقوق . وعندئذ بدأ الجدول العذب الذي كان يتسلسل في طريقه سهلا رفيقا يتحول إلى طريق ملتويـة مليئـة بالجنـادل والأحجار .

فقد توشجت بينـه وبـين زمـيلين مـن رفاقـه بالجامعـة أواصر الصداقة والمودة . واتفقا معه في نظرهما إلى الحياة من ناحيتها العابثة الماجنة . فكانـت لهـم في ظـلال الليـل متـع سعيدة بسامة . ينهلون من خمرين : ريق ورحيق ، ويتساقون من كأسين : آونة من فم الإبريق ، وأخرى من خـلال شـفاه وردية في حمرة العقيق ، وجعل في هذه الغمرة المجنونة لا يدع واجبًا له إلا أهمله حتى فوجئ بالفصـل مـن الجامعـة بعـد رسوبه في اختبار النقل عـامين متـواليين . وكانـت الصـدمة عنيفة قوية . والحسرة على ضياع مسـتقبله الجـامعي لذاعـة أليمة . وأخذت آماله التي كانت تضيق بها الـدنيا تتضـاءل وتـنكمش حتـى وسـعتها كليـة البـوليس علـى كـره منـه ومضض . . وتخرج ضابطا يختال بنجمته اللامعة ويلقى من التحية ألوانا كلما مرَّ في طريقـه بواحـد مـن أولئـك الجنـد المساكين . . . وعاوده الحنين إلى المرأة غلابا قويا . وأخذت جوارحه تهتف بنداء الجنس فيستجيب لها في جنون وشغف إلى أن وضعت الأقدار في طريقه تلك المرأة التي أنا بسبيل من الحديث عنها الآن .

كان الفصل شتاء، والسماء عابسة يدوي في جوانبها الرعد، مظلمة يلتمع في حواشيها البرق، والليلة باردة الأنفاس، مقرورة النسمات، وكان الفتى على موعد مع رهط من أصدقائه في حفلة غنائية ذهب يشهدها، فاتفق له أن يجتاز في طريقه ميدانًا صغيراً من ميادين القاهرة، فلمح على هامش الطريق فتاة تعبث الرياح الغاضبة بثيابها الفضفاضة عبثا منكراً قبيحا، تتململ في وقفتها الضارعة الذليلة. وترعش أوصالها تحت أضواء هزيلة يرسلها على الطريق مصباح باهت شاحب. فعرف أنها طريدة من طرائد الليل قد أتاحتها له الفرص السعيدة في هذه الليلة العصيبة.

فمشى إليها جريئًا يختال بنجمته اللامعة وسمته الرائع الجميل، وسدد إليها تلك النظرة التي تعرف المرأة وحدها سر ما تنطوي عليه. فأغضت حياءً وقد اصطبغ وجهها بلون الورد في زمن الربيع. واستقل معها عربة إلى مسكنه الخالي إلا من خادم ريفي يتوفر على خدمته والعناية بشأنه.

وهناك في تلك الخلوة التي تهيج في المرأة أشجانها المستورة، وتثير عواطفها المكمودة، ترقرق الدمع في مآقيها وجعلت تفضي إليه بودائع قلبها الدامي الجريح في لهجة محزونة تنتزع من أصلب القلوب ألوانًا من العطف والإشفاق والرثاء. .

عرف أنها واحدة من تلك الضحايا البريئة التي غلبت على أمرها في خلوة مجنونة عابثة. مأخوذة بمعسول الأماني وبواسم الأحلام. زين لها لص من لصوص الأعراض سحر الخطيئة. فأكلت من الشجرة الملعونة ثم تنكر لها.

وعلم أهلها بعارها فنبذوها، وعضها الجوع وأذلتها الحاجة، فخرجت إلى الطرقات دامعة العين مصدوعة القلب غير مستعصية على طالب متعة لقاء ثوب تلبسه، وفضلة من طعام تأكلها. ولقد هتفت بكل ما فيه من رجولة ورحمة أن يستبقيها في بيته خادمًا ترعاه وتعبده، وأن يمسك عليها تلك البقية الباقية من شباب ذبلت زهرته، وحياءً كادت

تـأتي عليـه عـوادي الليـل وأحـداث النهـار . . . . . .
فتجمعت الدموع في عيني الشاب عطفًا عليها ورثاءً لها .

وبدأت تخامر قلبه من نحوها عاطفـة مجهولـة غامضـة . عاطفة إن لم تكن حبًا فهي قريبة مـن الحـب . وأجمـع أمـره على أن يعصمها من السير في هذه الطريق الشائكة الملتوية . وسيشعرها في جواره هناء الحيـاة ولـين العـيش . وحسـبها تكفيراً عن زلتها ما لاقته من أهوال وخطوب .

ولبثت في بيته عامًا كاملا لا تكشف الأيام منها في خلاله إلا عن كل ما يملك القلب ويأسره ، خلق رضي كالماء رقـة وعذوبة ووفاء يسمو إلى حد التضـحية . وعرفـان للجميـل أحبته من أجله حبًا هو أشـبه بالعبـادة والتقـديس منـه بـأي عاطفة أخرى . وأحس الشاب إحساسًـا عميقـا بهـذا كلـه فبادلها حبا بحب ، ووفاء بوفاء . وأقدم علـى الـزواج منهـا زواجًـا رسميـا ترامـت أخبـاره في الريـف إلى أبويـه وهـو وحيدهما . فجنّ جنونهما وثارا بـه ثـورةً عنيفـة لم يجـد في تهدئتها توسل ولا رجاء .

وآذناه بالقطيعة والحرمان من ثرائهما العريض إن هو لم يفصم تلك الروابط التي تربطه بهذه المرأة الآثمـة كمـا نقـل إليهما خادمه الريفي الذي هجره من عهد قريب .

وبعد . . . فهل يهدم الشاب هذا العش الجميل الـذي يتذوق فيه السعادة خالصة والنعيم محضًا ليجدد على أنقاضه مودة أبوية . وليرضي تقاليـد الأسـرة العريـق الـتي ينتمـي إليها ، ويرسل تلك المرأة التي تعبده الآن وتسعده ، لتحيا من جديد حياة كلها عار ورجس ودنس . أم تراه يمسـك عليـه زوجه ويدع للأيام أن تبلي غضب أبويه كمـا يبلـي في هـذه الحياة كل شيء .

جميع هذا العالم الأثيري الذي لا نهاية له، بكل ما يطن فيه من سدم وأنجم وأفلاك، وكل ما يروح في كواكبه ويجيء من خلائق وكل ما يسبح في أجوائه من ملائك، ويصدح ملئها من طير. . . كل ذاك، كل ذاك قطرة من بحرك الزاخر أيها القلب الشاعر!

أنت أكرم خلق الله على الله. . . لأنك تتسع لكل ما لا يتسع له غيرك مما صنعت يداه.

تتسع لما تضيق به العقول الضالة التي تتعالىَ فتنكره، لأنها تحصي عليه كل ما عمى عليها فتجعله في منطقها تضارباً. . . وما دام هنالك تضارب فثمَّة جحود ونكران.

تتسع لهذا كله لأنك لا تعرف الحدود، وهي مقيدة بالحدود. . . أنت حر طليق، وهي ذليلة مستعبدة ترسف في الأصفاد والقيود. . .

أنت أكرم خلق الله على الله، لأنك تلجم هذه العقول دائماً حينما تطلق عليها عواطفك فتلسعها كما يلسع

النحل، ثم تسائلها ساخرة: ما الحياة وما الجمال وما الحب؟! وما وراءك أيتها العقول؟ منذ الذي يمسكك فلا تكوني هراء وجنوناً؟

منذ الذي يمسك الأرض والسموات أن تزولا؟ وما سر هذا الجمال الذي يبهرك ويورث منطقك البكم، والذي يملأ الأرض والسموات؟ ما سرّ هذه الألوان التي تذهب الشفق، وتفضض السحب، وتموه صفحة اليم، وأديم السماء بأصباغ البنفسج، وتزخرف بالدمام ثغور الزهر، وتغازل بالسحر خدود العذارى، وتملأ بالفتنة عيون الحسان، وتنضد بالجسمان ثنايا الغيد، وتطبع بخاتم الحسن ثدي الكواعب؟!

ما سرّ هذه الألوان يا عقول؟

وما سرّ الجاذبية التي تربط الدنا بالدنا، والعوالم بالعوالم؟! الجاذبية التي هي سر الحياة وبقاؤها، واستمرار الوجود وقيامه؟! الجاذبية التي تشد بين العيون والعيون، وتعاطف بين القلوب والقلوب، وتربط الأرواح بالأرواح؟!

ما سرّ تلك الجاذبية التي تسيطر على سكان المدينة وسكان الخميلة وما تعج به الغابة، وما يأوي إلى الكهف، وما يخفق بجناحيه في الهواء، وما يتخذ سبيله سرباً تحت الماء؟

وإلى أن تجيبي فاعزبي، ودعي القلب الشاعر يغني!

أي القلوب يحب كما تحب يا مستودع الشعر، وأيها يرحم كما ترحم، وأيها يضطرب كالعاصفة كما تضطرب حين يحز بك أمر، أو حين تتحرق أسى على الإنسانية الضالة؟

أي القلوب يفيض بالخير والنبل كما تفيض، وأيها يبتسم لما يصيب الناس من سعة كما تبتسم، وأيها يعبس وينقبض لما يؤودهم من شدة كما تعبس وتنقبض؟

إنك تود حينئذ لو استطعت فسحرت لهم الجبال ذهباً، والتراب فضة. . . أو سخرت لهم الريح فأمطرتهم دنانير ودراهم، أو أمرت البحر فحار ماؤه لبناً وعسلاً مصفى!

إلا أنك تعجز أيها القلب النبيل. . . يا أكرم المخلوقات. فيذهب بك صاحبك ليجلس فوق ربوة، أو

في منعزل من الناس، لتخفق له، وتغني له؛ وتنظم له ألحانك كي يهديها بعد إلى الناس. إلى الجائعين الظامئين الذين أضرت بهم المسغبة وأذاب أبدانهم الطوى، وأضرت بهم تلك الريح العاصفة التي تلفح الإنسانية الضاوية وتتلقفها بالموت في كل مكان.

بيد أنك تعود أدراجك لتبكي يا أكرم المخلوقات، لأن ألحانك لا تخفف من ألم الجوع، ولا تروي من حر الظمأ، ولا تستطيع أن تنسج نفسها ثوباً يرد عادية البرد، أو يصد لفح الشمس؛ ولا تستطيع الأم الفقيرة المعذبة أن تشتري بمعظم قصائدك قدحاً من اللبن لطفلتها الباكية التي يصهر الجوع أمعاءها؛ ولا أن تبتاع بالباقي أرغفة من نخالة هذا العصر الأسود تملأ بها معدات أطفالها الآخرين.

طالما يضحك العلماء من أحلامك، والأغنياء من فقرك، وطالما يستهزئ الخبراء في الأرقام بعواطفك التي لا عدد لها، لأنها عداد كل شيء. . .

غير أنك تضحك منهم جميعاً، وتستهزئ بهم جميعاً؛ لأنك تعرف أنهم يعيشون اليوم ثم يموتون غداً، فلا

يذكرهم أحد. . . فهم ينتهون كما انتهى ألف مرة الطعام الذي طعموا، والشراب الذي شربوا، والملابس الزاهية التي طالما تاهوا بها ودلوا. . . وكما انتهت الأرقام الضخام التي طالما زهموا بها السجلات.

أما أنت فتعيش اليوم، وتعيش غداً، ولسوف تعيش إلى الأبد. تعيش اليوم في أفئدة المعجبين بك، أولئك الذين تواسيهم دائماً بأناشيدك، وترأب جرحهم بأغاريدك، وجفف دموعهم بألحانك، وتبدل جحيم الحياة من حولهم جنات تجري تحتها أنهار ـ حنانك، وتتفجر فيها أمواه عطفك، وتصدح في أفنانها بلابل شدوك، ويحمل إليهم نسيمها عذب غنائك فترد إليهم السعادة، وتحيي في نفوسهم الرجاء، وتنعش في قلوبهم خامد الأمل، وتصلهم بعد القنوط بحبل من الله، فتستنير بصائرهم، وتهدأ أعصابهم، وتفيق أرواحهم الخافتة من سكرات الجوع والظمأ والعرى بذكر الله. . .

وأنت تعيش غداً بمثل هذا، ولسوف تعيش إلى الأبد بمثل هذا. ستعيش في قلوب القافلة التي يجد بها السير.

القافلة التي ركبها المئون، فيتصل به المئون والمئون حتى يجئ أمر الله. . . ستعيش كما يعيش الصديقون والشهداء وقادة الإنسانية. قادتها إلى الطوبى التي طالما غازلت خيالك، وعمرت أحلامك، ورفت كما ترف الجنة تحت شباة قلمك وفي صميم سويدائك.

ألا ما أسفه الذين ضحكوا منك، واستهزأوا بك عند ذاك!

لقد فرغت الدنيا منهم، بقدر ما امتلأت بك، وهبطوا إلى التراب وسموت إلى عليين!

يمشي صاحبك أيها القلب الشاعر كما يمشي الناس في الحدائق والطرقات، ويقف كما يقفون عند شاطئ النهر، وحفافي الغدير، ويرى كما يرون بعينين، ويتكلم بلسان وشفتين، ويسمع بأذنين، وله يد كما لهم أيد تمتد إلى طعام وإلى شراب وإلى. . . كتاب.

إلا أن صاحبك حينما يمشي في الحديقة يكلم الورد، ويكلمه الورد بلغة قد لا يعرفها الناس وقد لا يسيغونها؛

لأنها لغة صامتة تتفاهم بها الأرواح التي من قبيل روح الوردة وروح الشاعر . . .

ثم هو يكلم كل ما هو في الحديقة، ويفهم عنه ما لا يفهم الناس.

إن الحديقة أغنيته الكبرى الخالدة، التي يتنفس فيها كل شيء، ليجاوب نبضاتك، ويرقص على خفقاتك، وليتحد بك.

فإذا مشى صاحبك في الطرقات، وثبت إلى عينيه أيها القلب، يا أكرم المخلوقات، وكما تثب إلى مسمعيه، كي تنطبع على شغافك آلام القافلة المتعبة، وتستقر في جوانبك أدعيتها، فتطب لها بما ترقرق من غناء وحداء.

أما إذا وقفت عند شاطئ النهر أو حفافي الغدير، فإنك تسبح لله وتثني عليه، فتقبل قطرات الماء لتصلي معك، وتنشد إنشادك، وتتمنى لو تقبل قدميك، أو تقبل فمك، لتمتزج بروحك العلوية التي هي بضعة من الروح الأكبر، وقبس من نور الخلود، ونفس من أنفاس الرحمن. . .

وإنما تتمنى قطرات الماء أن تصنع ذلك لأنها تحس كأنما تنبع من أعماقك، وتنسكب من نفسك، كما نبعت من السحاب الذي باركته يد الله. . . وانسكبت من القمة الشامخة التي يداعبها البَرَد ويغسلها الثلج. . .

ألست المرآة الصافية التي تجلو جمال هذا الكون للناس، والعندليب المجلجل الذي يفتح آذانهم على ألوان من مباهجه لم يكونوا يفقهونها لولاك؟!

ألست الناي الخالد الذي يسكب في أسماع الزمان ألحانه فينشط الركب، وتتجدد عزمات القافلة، وتغني السنون، وترقص الأيام!

ألست الطبيب النطاسي[1] الذي يأسو جراحات الحزانى، ويعالج لواعج المحبين. . .

وقد تظمأ مع ذاك يا أكرم خلق الله، فإن اشتد بك حر الظمأ فاشرب ما شئت من سلافة العيون. . . العيون الخضر الرمادية، والعيون الزرق اللازوردية، والعسلية الصافية التي فيها من مغناطيس الكهرمان. . . واشرب ما

[1] العالم الماهر والطبيب الحاذق

شئت من العيون السود التي فيها ذاك المزيج العجيب من الدعج والحور والوطف[1] ما تسكر به وتسحر وتأمر. . . العيون الجميلة النجل التي تغمزك في هوادة ورقة ورفق مرة، وفي عنف وقسوة مرات. . . وهي في الحالتين أمواه حياتك، وحدائق أحلامك، ومشارق خيالك، ومهابط وحيك، ومراتع فتونك، وملاعب هواك.

العيون الموسيقية التي لا يتسع غيرها لملكوتك الرحب الذي لا يعرف الحدود!

اشرب منها ما شئت، ثم تصدق بما تنبته تلك المدامة في جناتك ذوات الجنا من موسيقى وألحان. . .

تصدق بهما على المدنفين والمكلومين والمحرومين.

تصدق بألحانك على العيون المشهدة، والجوانح المشبوبة، والحدق الباكية، والأنفاس المحترقة، والفم الظامئ، والمهجة الغرثى، والروح الصادية. . . على كل حمامة تنتظر، وعلى كل ظبي غاب عنه أليفه. . . فألحانك غذاء هذه الأرواح جميعاً، وهي عصارة العيون التي شربت،

(1) كَثْرَةُ شَعْرِ العَيْنِ

والخدود التي رعيت، والأنفاس الطاهرة التي اختلطت بأنفاسك، وشاعت حمياها في أعطافك أيها القلب الشاعر! يا أكرم المخلوقات وأنبلها!

لن أفرغ اليوم منك، لن أفرغ منك غداً ولا بعد غد، فإلى صلاة قريبة، وإلى لقاء قريب!

القبلة الأولى و. . . الأخيرة!

كان ذلك في مصحة. . . .

وكانت فتاة شاحبة ذات عينين كبيرتين شاعريتين، تطل منهما نفس حزينة متألمة، تارة تحلق في السماء تدعو الله اللطيف وتصلي له، وتارة تنظر إلى المصحة التي اجتمعت فيها أمراض وأحزان وأماني؛ وكانت تجلس فوق مقعد منفرد في زاوية منعزلة في الحديقة الصينية التي تكسبها التماثيل البوذية والظُّلات والرابية الكبيرة ومساقط المياه ذات الخرير جلالاً ورونقاً وهدوءاً يشبه موسيقى الأرواح الباكية التي ترفرف أبداً في سماء تلك المصحة الرحيمة.

وكانت الفتاة تسبل فوق رأسها شُفوفاً من الحرير البنفسجي تداعبه نسمات الحديقة كلما هبت رُخاءً في ناحيتها. . . ولكنها تركت السماء كلها، بما تفيض به من رحمة ولطف، واتجهت بكل روحها إلى نافذة بعينها في المصحة، وراحت تحدق فيها تحديقاً شديداً، ثم أخرجت

من (حقيبتها) منديلاً صغيراً وضعت فيه لآلئ غالية كانت أوشكت تنهمر من عينيها.

وكانت الشمس قد آذنت بغروب، وكانت تصب ذهب أشعتها على نواصي التماثيل الرائعة، ولكنها كانت تصب أكثر هذا الذهب على ناصية بوذا الأكبر كأنها تستهزئ به، لأنه إله من حجر! وكانت ألف فكرة تزدحم في رأس (سهام) كلما تقَشَّعت الشمس قليلاً قليلاً عن رأس التمثال، فتبتسم ابتسامة ساخرة. . . وتخفي دمعة كبيرة في منديلها الصغير.

وأقبلت جارية (حبشية) فحيّت الفتاة، وأشارت إليها سهام فجلست عند طرف المقعد المنفرد المصنوع من جريد النخل. . .

ـ (سيدتي!).

ـ (. . . ؟ . . .).

ـ (أرسلني البيه الكبير أناديك).

ـ (ولماذا عاد مبكراً هذا المساء؟).

ـ (لا أدري، وهو يقول إنه يود أن يشرب الشاي مع سهام هانم).

ـ (وإذا لم تكن لسهام رغبة في الشاي ولا في القيام من هنا فـ. . .).

ـ (سيدتي! ألا ترحمين شبابك؟).

ـ (أرحم شبابي كيف يا مسعدة؟).

ـ (من هذا الذي أنت فيه!).

ـ (وماذا أنا فيه يا مسعدة؟).

ـ (الكر المتصل والحزن الذي لا حد له. . .).

ـ (أشكرك يا مسعدة. اذهبي فاعتذري عني للبك ـ أنا لم أعد أحب الشاي في هذه الساعة).

ـ ولم في هذه الساعة؟).

ـ (لأنها كانت أول شكواه من هذا المرض الخبيث، ومن يدري، فربما كانت أول شكواي أنا أيضاً. . .).

ـ (يا سيدتي ارحمي شبابك قلت لك. إنها أيام ويغادر المصحة سليماً معافى، ألست تثقين في تأكيدات الدكتور؟).

ـ (الدكتور؟. . . أنت طيبة القلب يا مسعدة! أنت طيبة القلب جداً).

ـ (الدكتور يؤكد أن سيدي نادر بك يتعافى يومياً، وسيتماثل للشفاء قريباً، وأنا أرى أنك تتلفين صحتك بهذا اليأس الذي يدمي قلبك ويجرح نفسك ويقرح عينيك؛ سيدتي سهام هانم: ألا تسمعين نصيحتي؟).

ـ (وأي نصيحة يا مسعدة؟).

ـ أنت شابة جميلة، والمستقبل أمامك مشرق بسام، والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدميك و. . . أوه. . . لا أجرؤ أن أقول. . .).

ـ بل قولي يا مسعدة، قولي. . . أنا شابة جميلة. . . والمستقبل أمامي مشرق بسام. . .

والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدمي. . . . . الله الله يا مسعدة. . . ثم ماذا؟).

ـ (سيدتي سهام. . . إني أعتذر!!).

ـ (تعتذرين! تعتذرين من أي شيء! بل لابد أن تقولي ألست (داده) يا مسعدة).

ـ (لا . . . لا أجرؤ . . .) .

ـ (لا تجرئين على أي شيء يا مسعدة . . . إن لم تقولي فإنك تحزنينني) .

ـ (ولكن على شرط . . . إن لم تروقك الفكرة فلا تضمريها لي) .

ـ (لك هذا يا مسعدة) .

ـ (ألا تستطيعين أن تصرفي قلبك عن نادر بك . .) .

ـ (أهذه نصيحتك أيتها العجوز ! اذهبي فلن أشرب شاياً قلت لك) .

ـ (أ . . . أ . . .) .

ـ (اذهبي . . . اذهبي) .

ـ (يا مسعدة قلت لك لا شأن لك بسهام ونادر ، لقد كان يعبدها قبل مرضه . وكان يوشك أن يخطبها لولا وفاة والدته . . وهي أيضاً تحبه حباً يمتزج بكل قطرة من دمائها ، إنها تكاد تجن من أجله . . . إنها لا تنام أبداً ، و . . .) .

ـ (وماذا يا عثمان . . .) .

ـ (وهي تنسرق كل ليلة إلى المصحة وتزوره ، وأخشى أن تكون أصيبت بمرضه ، لأني أسمعها تسعل كالمسلولين . . . مسكينة . . .) .

ـ (لا قدر الله يا شيخ . . . إنها حزينة فقط ، وأنا لا أدري لحزنها سبباً ، فألف شاب جميل غني يتمنون أن تصبح لأحدهم زوجة . . ولكنها تأبى إلا أن تسمع لقلبها . . قُتل الحب ، إنه لا عقل له ! لقد كلمني اليوم عصام بك وألح علي في محاولة التأثير عليها ، وهو يضع كل ما يملك رهن تصرفها ، فماله هذا الشاب الوجيه ؟ ! صحة وثروة وأسرة . . . وشباب !) .

ـ (يا ابنتي رفقاً بنفسك ، أقسم لك بالله وبشرفي أن الدكتور أكد لي اليوم أن لنادر أياماً قليلة جداً ويغادر المستشفى سليماً معافى . . .) .

ـ (سليماً معافى . . . متمتعاً . . . بكامل صحته . ، هيه . . . يا رب ، سيغادر المستشفى إلى الأبد . . . هذه هي الحقيقة !) .

ـ (أجل، سيغادره لتعيشا معاً في نعيم إلى الأبد! سهام!).

ـ (بابا. . .).

ـ (هلمي نجلس قليلاً في الحديقة، هلمي يا ابنتي، القمر جميل، والنسيم رَخِيّ، و. . .).

ـ (بابا. . .).

ـ (سهام!).

ـ (أنا لا أحب الحديقة ولا أحب القمر. . . لنبق هنا. . . الدنيا برد!).

ـ (يا ابنتي لا تعبسي للدنيا هكذا. . .).

ـ (الدنيا؟ آه يا بابا. . . سأعبس لها إلى أن يشاء الله!).

ـ (لا حول ولا قوة إلا بالله. . . سهام، أنت تحرقين نفسك وتتلفين روحك في نار عاطفية كان ينبغي ألا تجعلي لها وزناً في رجاحة عقلك وسلامة تفكيرك. . . لقد كنت أحاول أن أصارحك بحقيقة نادر ولكني كنت أخشى على قلبك الغض وشبابك الرطب أن تعصف بهما كلماتي، مع

أنه لخيرك. . . سهام! استيقظي يا ابنتي! حقاً لقد أحبك نادر كما تحبينه، وكنت أنا نفسي ألمس محبته لك وهو يكلمني من أجلك، وعندما سلّمني (السوار الماسي الجميل) الذي جعله تقدمةً لزواجه منك، كنت أشهد في عينيه دموعاً محبوسة تريد أن تنهمر، عرفت منها أثر تحقيق الأحلام في نفوس الشباب ـ ولقد كنت أوشك أن أرفض هذا الزواج أول الأمر، لما كنت ألحظه في صحة نادر من التدهور والتهدم، لكني قرأت حبه في عينيك، وشهدت حرارة روحه تتورد في خديك، فتألمت، وفرحت، وذكرت (المرحومة) والدتك وما كانت تتمناه لك من السعادة الأبدية ورخاء البال، فوافقت، وضاعف ألمي وفرحي أن رأيتك سعيدة به بقدر ما هو سعيد بك، وهنا فقط. . . غلطتي. . . غلطتي التي لا يغفرها لي إلا أني لم أكن أعرف أن تدهور صحة هذا الشاب النبيل هو أول هذا المرض الخبيث العضال. . . سهام! استجمعي قواك! لا تجزعي هكذا. . . إن ألف شاب جميل رقيق القلب وافر الغنى في انتظارك. . . وقد خاطبني الكثيرون فعلاً قبل أن يعترض طريق حظك

ولدي نادر . . . سهام . . تشجعي! أنت صغيرة يافعة يا بنيَّة! نحن كلنا نرثي لشباب نادر، وكنا نضرع إلى الله أن يشفيه! . . . و . . .

ـ (بابا . . .).

ـ (سهام!).

ـ (ماذا تقول؟ كنا نضرع إلى الله! . . . ماذا قال لك الدكتور اليوم؟).

ـ (هذا هو الذي كنت أخشى أن يكون! ليهدأ قلبك يا بُنيَّتي، وليستيقظ عقلك الساهي . . . أريد ألا أفقد ابنتي الوحيدة كما فقدت زوجتي ارحمي أباك الشيخ المحطم الذي لم يعد له أمل في الحياة غيرك . . . أنت شمسه المشرقة فلا تحرميه من دفئها إلى الأبد . . . إن ثلج لمشيب يطفئ روحي قليلاً قليلاً . . . وكلما رأيتك يا سهام ارتد إليَّ شبابي، وانهزمت آلامي، وتفرجت كروبي . . . فلولاك للحقت بأمك، ولولاك لأغطش ظلام المنون حياتي . . . سهام! انظري إليَّ! أرهفي أذنيك! تحملي الصدمة معي . . . نادر في الطور الأخير من المرض . . .).

ـ (بابا . . .).

ـ (سو . . . ! سهام! هي صدمة كبيرة لا شك، وأشد منها أنني أرجوك . . . أرجوك يا ابنتي . . . أرجوك . . . يا . . . سهام!).

وساد بين الرجل وابنته صمت عميق، تخللته دموع أسْوَانة . . . ثم وصل الأب حديثه قائلاً:

ـ (أرجوك يا ابنتي أن تقطعي علاقتك بنادر . . . دعي ما في القلب للقلب، ولكن لا تذهبي إليه . . . لا تزوريه في المصحة . . . لقد أنذرني الدكتور مرتين، وقد فصل الممرضة المسكينة التي كانت ترحم دموعك وترثي لحبك فتوصلك إليه في ظلام الليل خلسة! العدوى يا سهام! أنت غالية عندي جداً، وعزيزة عليَّ جداً، وإذا فقدتك فقدت كل شيء . . . سهام! سهام! تكلمي يا ابنتي! ردي عليَّ! ماذا؟ تبكين!؟ أنت طفلة . . . لا، لا . . . ألم يخلق الله غير نادر . . .).

ـ (بلى . . . بلى يا أبي! لم يخلق الله غير نادر لي . . . لي أنا على الأقل! ولذلك . . . لا أعدك! لا يمكن أن

أعدَك يا بابا . . . و . . . أنا متعبة جداً . . . أريد أن أنام . . . عن إذنك) .

مسكينة سهام! لقد جاءت نصيحة والدها متأخرة جداً! لقد كانت تنتظر حتى تنام أعين الرقباء، وتغفى جفون الليل، ثم تنسل في جنح الظلام إلى المصحة، غير حافلة ببرد الشتاء، ولا قر الصحراء؛ وهناك كانت ترشو البواب الفقير، وتجزل له العطاء، ثم تعرج إلى الطابق العلوي، فإذا لقيها بعض الخدم حفوا بها واحتفوا، فتنفح هذا قرشاً وذاك قرشين، حتى تلقى الممرضة الصغيرة الجميلة التي كانت تعرف سر قلبها وعلالةَ نفسها، فتنسى هذه كل قوانين المصحة في سبيل قوانين الحب، وتمضي بين يديها إلى غرفة نادر . . . المسلول المدنف البائس . . . فتقف لحظة خاطفة، وتستأذن . . . لتخلي الطريق المكهرب بين القلبين الحبيبين .

وكان نادر يقدر لسهام تجشمها الصعاب من أجله، وكان يلقاها دائماً بابتسامة عذبة محزونة، وعينين سادرتين مغرورقتين، وروح تكاد تثب لتلقها بذراعين من سرور!

يا لله . . . ويا للحب!!

لم يكن نادرا يجهل خباثة مرضه، ولم يكن يجهل أن عدواه شديدة الفتك، وكانت سهام كنزه الروحي الذي يضمن له السعادة والأحلام، ولذلك كان يحرسها دائماً بإبعاد فمه عن ناحيتها، وكان يزوي وجهه عنها أو يدسه في منديل كلما كلمها . وكانت هي لا تبالي أن تدنو منه لتدلل له على أنه حياتها، وأنها لا تبالي أن تصاب بمثل ما يشكو منه، وذلك من عمى الحب وجهله؛ بيد أنه كان يرجوها في حرارة أن تبتعد، فإذ لم تُصغِ، دس رأسه بين الوسادتين، وراح ينتحب . فتشفق عليه وتبتعد .

وفُصلت الممرضة التي كانت تُسهل لها زيارة نادر لفتنة شبت بين الخدم من أجل قروش سهام . . . والحق أنَّ الرحمة بالمحبين في هذه الأماكن الخطيرة حماقة من الرحماء المشفقين!

على أن سهاماً لم تَعيَ بزيارة نادر، بل استطاعت بقروشها أيضا أن تنفذ إليه مرات ومرات!

ولم تكن سهام تجهل أن فتاها في الطور الأخير من مرضه، ولم تكن في حاجة لأن يخبرها أبوها بذلك، ولكن تلّقي الأخبار السيئة يكون جديداً كلما امتلأت به الأذن مرة بعد أخرى، وضاعف وقع الخبر في نفس سهام أن الدكتور أكّده. فلما ذهبت إلى مخدعها لتنام طفقت تتقلب في أشواك من الهموم، وفوق إبر من الأفكار السوداء التي تشبه الخفافيش.

وذهب أبوها إلى مخدعه كذلك، ولكنه ما كاد يستقر فيه حتى سمع ابنته تسعل. . . ثم تسعل. . . وهنا هاجت خلية من اليعاسيب في رأسه، فنهض من فوره وتوجه إلى غرفتها؛ ولكنه وقف عند الباب يَتسمَّع ويتسمّع. . .

(أه يا نادر. . . يا حبيبي يا نادر. . . كيف أعيش بعدك يا نادر؟. . .

وكان الصوت ضعيفاً عميقاً يتشقق عن صدر ممزق ونفس محروقة؟

ودخل الوالد الذاهل عن نفسه فجلس بجانب ابنته على سريرها ومر بأصابعه على رأسها فأحس كأنه يحترق.

وكانت سهام ما تنفك تسعل. . . وتسعل.

ونهض أبوها فتكلم مع أحد أصدقائه الأطباء في (التليفون) فجاء على عجل. . . وزار سهاما. . . وبكل أسف كان هو نفس الدكتور الذي تسبب في فصل الممرضة من المصحة.

وداعبها الطبيب بكلمات حلوة منمقة معسولة، وخرج ولم يكلم أباها. . ولكنها سمعته يقول وهو يطوي الدرج (أنا قلت، أنا قلت. . .) فكانت حماقة أدهى من حماقة الممرضة!

وتبسمت سهام تبسماً حزيناً، وجعلت تتمتم (نادر؟ سويا يا نادر!!).

ولما أحضرت قوارير الدواء وزجاجاته حدجتها الفتاة بنظرات الاشمئزاز ولم تذق منها جرعة!

واشتدت وطأة المرض على سهام، ولم تكن هناك وسيلة خير من انتقالها إلى المصحة، المصحة نفسها. . . ولم تشعر بغضاضة وهي تلم شعثها لتنتقل إليها، بل كانت تحس كأنها ذاهبة إلى الجنة لتلقى ثمة حبيبها الذي خيل لها

كأنه دخلها منذ بعيد. . ومن العجيب أن صحتها تقدمت تقدما محسوساً في الأيام لأولى، لأن شعور الفرح والرضى لمجاورة نادر كان يغمر قلبها ويفعمه بالمسرة.

وجاءت ساعة الهول والفزع الأكبر.

أقضت سهام ليلة مقرورة ممتلئة بالوساوس؛ ولم تكن عينها تغفل قليلاً إلا لتصحو فزعة من أحلام سوداء تتعلق بنادر. . . فلقد رأته مسجى فوق سريره، وقد تناثر الورد من حوله، ولف في ثوب حريري أبيض كبير هفهاف، ووقف عند رأسه عصفوران أبيضان يغردان تغريداً مشيجاً حزيناً. . ثم ما هي إلا لحظة حتى أغمض النائم عينيه. . . وطار العصفوران إلى السماء. . . !

وهبت سهام مذعورة. . . وآلت ن تذهب إلى نادر، وعبثاً حاولت الممرضة الطيبة الموكلة بها أن تطمئنها. . . وعبثاً حاول الخدم معاونة الممرضة في تسكين روح سهام. . التي راحت تصرخ بملء صوتها الضعيف المحشرج. . . وهبت تناضل الجميع لتمضي إلى حيث فتاها المريض.

وجاء الطبيب. . . وفشلت كل مساعيه في إقناعها بالنوم والراحة. . . وأخيراً سمح لها.

كانت تمشي ضعيفةً موهونة متثاقلة، وطوت الدرج في مشقة. . . وكانت تسعل سعالاً مؤلماً. ولما دنت من غرفة حبيبها المسكين وقفت تسترق السمع.

(آه. . . . آه) ثم سعال يعقبه (سهام! يا سهام! أنائمة أنت! شفاك الله يا حبيبتي! ألا أراك! وداعاً إذن!) وكان الصوت خشناً كأنه يخرج من بين شقي رحا!

ـ (نادر! ملك يا نادر!).

ـ (سهام!).

ـ (أجل! أنا سهام، مالك! أمتعب أنت؟).

ـ (لا، ولكني أعتب عليك، أ. . . أتنزلين. . . آه).

ـ (مالك يا نادر؟).

ـ (اذهبي إلى غرفتك فاستريحي. . . الدنيا برد. . . ارحمي نفسك. . . أنا شاكر لك. . . آه. . .).

ـ (بل أجلس معك يا نادر. . . مالك!).

ـ (لا شيء لا تنزعجي؟).

وكان الطبيب الرحيم البار ينظر إليهما ويبكي؟

ـ (خبرني يا حبيبي. . . أتشكو شيئاً!).

ـ (اطمئني يا سهام. . . يجب أن تعيشي لوالدك ولشبابك).

ـ (أنت تزعجني!).

ـ (لا تنزعجي أبداً!. . . فأنا. . .).

وضعف الصوت قليلاً. . . ثم قليلاً

ـ (مالك. . . مالك. . . يا دكتور، تعال. . . اكشف عليه!).

ـ (لا فائدة يا سهام! يجب أن تعيشي! سهام!).

ـ (نعم يا حبيبي!).

ـ (أل. . . آه. . . كم أستحي أن أقول لك؟).

ـ (بل قل. . . قل يا نادر!).

ـ (كنت حلم أن فوز منك بقبلة تنير لي طريقي إلى الدار الآخرة!).

ودنت منه، وقبل أن تهوي على فمه تقبله، انقض الدكتور فحال بينهما!؟!

يا للسخف!

ولان قلب الدكتور فوضع منديله على وجه نادر، وأشار إلى الفتاة، فدنت منه. . . وطبعت عليه قبلة باكية. . . ولكنها أحست بشفتيه الباردتين المثلوجتين. . . وبحركة خاطفة رفعت المنديل وحدقت في وجه الفتى. . . ولكن. . . وا أسفاه. . . لقد فارق الحياة.

وتوجهت سهام إلى الله بنفس حزينة راضية. . . وغادرت المصحة بعد أيام، ولكن لا إلى قصر أبيها وحدائقه. . . ولا إلى أحلامها وأمانيها.

كان فتى خيالي النزعة، أغرته هذه الأفكار السوداوية، فاندفع فيها، لا يرى أن الحياة تتسع لغير هذا الشقاء يعلق بها من مفتتحها إلى حيث الحد بين الدنيا والآخرة، ومضى تعبث الكآبة بناضر شبابه، إلى أن غدا وهو في ميعة العمر.

ناحل القد، حائل اللون، رطب الجفن كأنما علق به أثر من أدمع البارحة. . وإذا ما أصغيت إليه وهو يتحدث أسرتك هذه الغنة في صوته، وهذا العمق في أفكاره، ورحت تعجب كيف يستطيع هذا الظل حمل كل هذه الشجون؟.

عرفته في الشباب فقامت بيننا صداقة موثقة العقد، متينة الأواصر، يشوبها الإجلال من جانبي، والرثاء من جانبه، فقد كنت في نظره واحداً من هذه الملايين التي تتعثر بآمالها، وتتمرمر بأمانيها، وغبرنا على هذا زمناً إلى أن فرقت بيننا دواعي الحياة، وبقي خالداً في فكري، خالداً في روحي،

ومضت سنون لم نتلاق فيها، إلى أن جاءتني منه هذه الرسالة:

يا صديقي:

ما كنت أظن أن كلامك يكون جداً وأنت تهزل، فلقد اعترضتني هذه ـ الجنية ـ التي شد ما حدثتني عنها، واستطاعت أن تلامس حياتي بعصا سحرها، فتغير منها. . ثم تمر بأناملها الجميلة على أجفاني فأغدو أبصر وأرى أن هذا الوجود ينطوي على أشياء كثيرة جميلة.

. . . وتفصيل الخبر أني هبطت هذا البلد، وشدتني إليه ضرورات لا أستطيع الإفلات منها، ومرت الأيام والشهور متشاكلة متشابهة، وقد كنت لا أزال أسدر في كآبتي، وأتخبط في مآتي أشجاني، حتى كان يوم اللقيا بهذه الساحرة، فكأنما بعثت خلقاً جديداً، واستطاعت أن تنقي حياتي من كل هذه الأفكار الشائكة. . . فلقد كانت تكبرني بأعوام، وكانت تكبرني بهذه الأفكار نقتها التجارب وأخلصتها من كل خطل، وشاء الدهر الساخر أن

يكون بين أبي وزوجها علاقة. . . وزوجها هذا ـ غفر الله له ـ ليس له ميزة من علم أو جاه.

غير هذا الجاه الرخيص الذي تبعثه المادة، وهو يجمع بعد إلى قبح الجهل، دمامة الشكل، وسمح لي أن أتردد إلى بيته، وراقه أن يجد أن زياراتي تبعث في زوجه روح الغبطة والسرور، فينضر فرعها الذابل، وتدب الحياة في روحها الرازح تحت هذا الألم الحبيس الذي يعج في صدرها. . . وكأنه كان يشعر أن بينه وبينها عدا فارق العمر، تبايناً في الروح والفكر. .

وكنت أشعر وأنا أتردد إليها أني أُقاد إلى الهاوية، فهذا الصوت الهادئ المتزن، يعيد إليك ذكرى لذة غابرة، وهذه العين غرقى في صفائها تغازل النور، محال أن يقوى على ندائها روح يتعشق الجمال. . . ولقد كنت قادراً على أن أكتمها حبي، وما حاجتي إلى الإفضاء به، وأنا لا أطلب أكثر من أن أجلس إليها ساعات ترفه عن روحي، وتغذي مشاعري، غير أنا في إحدى جلساتنا، وقد تشعب بنا الحديث، وأخذت علينا الغبطة يقظات الإرادة، سمعتُ

صرخات روحي في داخل البدن. . . أنني في حاجة إلى الامتزاج بها، إلى الفناء في ذاتها، وكأنها أحست بما أحسست به فالتحمنا بالنظر. وقالت عينها، لا حاجة إلى الثورة ـ إني أحبك ـ فأجابت روحي من عيني ـ وأنا أحبك ـ ولكن عينها عادت فقالت إني أحتقر ملذات البدن، فلا تطمع بها، فقلت وأنا أحتقرها، لقد مللتها، إن روحي هي الصادية.

وفي تلك الجلسة أعلنت لها حبي، وباحت لي بمثله. .

ومن ذلك الحين، أصبحت لا أقوى على فراقها، ولا أطيق الابتعاد عنها دقيقة، ولقد تعاظم أو تضاءل الوجود ـ لا أدري ـ فأصبحت هي كل شيء فيه، واستقر حبها في أعماقي ناراً، فغدوت بجانبها أحترق.

ومرت الأيام مفعمة بالهناءة، فكنا نلتقي كل يوم، لا أرتوي من هذه الكلمات تند عن هذه الشفاه الجميلة، ولا أشبع من النظر إلى هذا المحيا الذي يبعث إليك في كل لمحة فكرة تحمل معاني الرضى عن الحياة. . .

وأشهد أن جمالها أدناني كثيراً من حمى الله. . وارتفع بنفسي إلى عالم أندى من عالمنا هذا، يرى منه الإنسان مبلغ ما تتردى فيه الخلائق من سخافات، ومبلغ ما تنطوي عليه البشرية من حماقة.

وكنا نتخير من الأمكنة أهدأها، ونهرب بسعادتنا بعيدين عن الضوضاء والصخب، وكأنها وهي ترقى القمم، أو تنساب معي إلى الوادي دنيا من الفتنة تتحرك. . على أن هذه التشابيه والصور كانت تجيش بنفسي ولا أجرؤ على إسماعها إياها. . . فهي لا تسمح لي أن أصور تموجات النسائم على غدائرها، ولا كيف تفتضح الموسيقى والشعر، قُبالة ضحكتها وبسمتها، ولقد سألتها مرة عن سر هذا الامتعاض، فقالت: ذلك أن الجمال ليس في الشكل، وإنما هو فيما وراءه. . على أن في كلامك غلواً، قلت: نعم ولا، الجمال في ما وراء الأشباح، وليس في كلامي غلواً، وكذا أنت ترين أن جمالك أمثل من أن نتطاول إلى وصفه، فصمتت ثم قالت: دع هذا وخذ في غيره.

قلت: فليكن فقد يجر إلى ما أخذنا على أنفسنا العهد بالابتعاد عنه. . . ثم تأخذ الحديث بلباقة وتديره على الوجه الذي تريد، مبتعدة فيه عن كل ما من شأنه أن يستثير فيك هذا الذي يطمع فيه عباد البدن. وهي إذ تحدثك لا تجهد في إقناعك، بل تلقي الفكرة موجزة واضحة، ثم تتركك تتخيل، وتقيس وتقارن، ولك أن توافقها أو تخالفها فهذا ليس بالشيء المهم، وإنما المهم أن تفكر!.

شارف العام أن ينتهي، وأنا لا أزال في غمرة حبها أضوي جسماً، وأنمو فكراً وإحساساً، أصبحت شغلي الشاغل، لقد لهوت عن العالم، ونسيت أن به خلائق يعز عليها أن ترى آلافاً تمتزج بالمحبة، وتلتحم بالروح، حتى كان اليوم الذي سحق فيه قلبي، وتحطمت كأس سعادتي، فقد جئتها في عصاراه كالعادة، لنذهب إلى نزهة اتفقنا عليها، فجلست إليها ريثما تنهي عملها، وتصلح من شأنها، ولكني أوجست خيفة، وأنا ألاحظ عليها أثر اضطراب تحاول إخفاءه، ثم رأيتها تتحفز للكلام، وبعد لأي استطاعت أن تجمع شتيت إرادتها فقالت:

أصغ إلي . . . . . قلت : كلي آذان . . . . .

قالت : أو لم تسمع؟ . . . لقد أكلتنا الألسنة! .

قلت : لا أدري ما تقصدين؟ قالت : ستدري . إن هذه البشرية المتمرغة بالخسة ، المتهافتة على الساقط من اللذة ، لا ترى من الممكن أن تقوم علاقة بين متحابين ، لا تمت إلى هذه الأسباب الدنيا ، ولا تنبع من هذه المنابع الآسنة التي منها يستقون علاقاتهم .

قلت ، وقد قام بنفسي أن أداري ألم الصدمة : ليكن هذا فخلهم وصغائرهم ، فما تصاحبنا لبذل في الخلق .

فوجمت قليلاً ، ثم قالت : ليس عن غباوة تتكلم ، وعاجلتها دموعها ، وقد والله يا صاح رأيت أنواعاً من الدمع ، فما رأيت أشجى ولا أبعث للأسى من دموع هذه الحسناء البريئة المظلومة ، إنها بهذه القطرات تحاول أن تستنطق العناصر وتستشهدها على طهرها وظلم الإنسان .

قلت : هوني عليك أو بلغ الأمر إلى هذا الحد؟! . . .

قالت : أجل! ومن حين وأنا أكتمك إياه ، وزوجي وأقرباؤه لقد طلبوا مني أن اقطع معك هذه العلاقات ، إنهم

يرونها خطرا على كرامة الأسرة ، وغدا يسافر بي إلى بلد ناء كتم عني اسمه وإخاله لن يعود إلا متى رحلت! ! . . . .

ودارت بي الأرض الفضاء وصرخت كالمذعور :

محال هذا ، إنهم يملكون منك الجسد ، أما الروح فهو وقف على محبتي ، لن أدعهم ـ وأنا قادر ـ يحطمون كأس حياتي . .

كيف يفصلونك عني؟! أيفرق الروح عن الجسد دون أن يتقوض؟ . . . .

ثم كانت ساعة افتضح فيها جَلَدي ، فطفقت أبكي ، لقد بكيت كثيراً ، وما صحوت إلا وهي تضمني ، وتبللني بمدمعها ، ثم طبعت على فمي قبلة ، طبعت على فمها مثلها ، هي أول وآخر قبلة ، هي أثمن ما أمتلك من ذكرى .

ومالي أشق عليك ، لقد انتزعوها مني كما ينتزع الطفل عن ثدي أمه ، لقد ذهبوا بأجمل حياتي ، وموئل ذكرياتي .

لقد كانوا قساة ، فلم يرحموا غرباء جاءوا دنياهم على عجل ، ويمضون كما جاءوا .

لقد ذهب معها الصبر، فأصبحت هذه الدنيا في نظري كشراك الطائر ضيقة قَفراء من كل ما يلهم العزاء.

وأنَّى لي أن أحمل كل هذه الدنيا من الأوصاب، فسقطت مريضاً خائر القوى، ولي هاهنا ـ بالمستشفى ـ شهران لا أقل إلا لأنتكس. .

وقد جاءتني بالأمس منها كلمة هي: (إلى الملتقى. .) إذن فهي تعرف أني بالمستشفى، بدليل أنها كتبت العنوان ورقم الغرفة، فخبرني أين تكون لقيا المرضى. . وأكبر ظني أنها مثلي مريضة.

إن الدنيا أضيق من أن تتسع للقيا القلوب الطاهرة.

إلى الملتقى. . حيث يتبع الحسن دون رقيب، وحيث تروى القلوب الظامئة إلى الجمال. . . إلى الملتقى. . . إلى الملتقى. . .

أنت تأخذ علي تبرمي بالحياة وانقباضي عما تزخر به القاهرة من شهوات السمع والبصر. ولكن أنسيت أن العين التي بيضها الحزن لا تستطيع أن تجتلي جمالا يرف في روضة، ولا حسنا يشرق في طلعة. وأن الفم المريض أزهد ما يكون في طعام وشراب. أنسيت أن صديقك كان يقطع أيام الشباب في مثل طلعة الصبح إشراقا وبهجة. ثم أمسى وقد استحال كل أولئك إلى ذكريات أليمة تعاوده في غرفة معزولة تدور به في مثل حلقة الواو كربا وضيقاً، فهو أبدا موصول الحنين متتابع الزفرات. أنسيت آمالي وأحلامي؟ (أما الآمال فقد عصفت بها النكبات حتى أحالتها إلى هشيم تذروه الرياح) وأما الأحلام فأنت تعرف أنها تكشفت عن رجاء ضائع وشباب هالك وحسرة لاذعة من شماتة الأعداء. ولكن مالي وللحديث في هذا ولست بسبيل من أن أتحدث إليك فيه اليوم؟ وإذن فدعني أحدثك حديث المغنية الضريرة التي سمعتها ليلة الأمس في حفل سعيت إليه في

رفقة من الأصدقاء على الرغم مني. . . هي حلوة القسمات بديعة التكوين جميلة كالزهرة تسند في حدود الخامسة عشرة من عمرها. . . أخذت مجلسها على استحياء فيما يشبه أن يكون ذلة وانكساراً وشيئاً من الخجل غير قليل. وصدقني أن مرد ذلك فيما أعتقد أنها فقدت بصرها وهي طفلة لم تدرج بعد من لفائف مهدها. . وما أحسبك تعتقد أن سلاح المرأة في هذه الدنيا شيئًا غير سهام العين. وفتنة اللحاظ ترسلها ذابلة مريضة، فإذا بها السيف حدة ومضاء، والشَرَك المنصوب لا يخطئ الفريسة ولا يعد والغرض. ولكن الأقدار التي قست عليها فجردتها من سلاحها الوحيد كامرأة لم تشأ أن تقسو عليها القسوة كلها فمنحتها صوتًا عذبًا حنونًا يفيض بالأسى وتقطر من جوانبه اللوعة. . . وارتفع صوتها بالغناء حزينا شاكيا يهيج ودائع القلب. ويستدر روافد الدموع.

أتعرف ذلك البلبل الذي هاجمته جيوش الظلام. قصياً عن العش الذي عرف، والدوح الذي ألف، والنبع الذي منه رشف، والجو الذي في أنحائه غنى وهتف، أسمعته وهو

بين لهفة إلى مهوى الفؤاد تقيمه، ووحشة من رهبة الليل تقعده، يصب ألحانه في أذن الوجود باكية حزينة تهز أوتار القلب. وتنتزع منه العطف والإشفاق والرثاء؟ أسمعته يشكو بغير لسان، ويبكي بغير دموع فيبعث لك من الماضي البعيد كل دفين ومستور؟ إن كنت سمعته على هذه الصورة التي أسلفت لك. وكنت مثلي تحيا على أمل عزيز لديك ففقدته، وكنت مثلي تذيب حبة قلبك وجداً على حبيب يجزيك على عبادته كفرانًا وجحوداً وعلى دمعك المسفوك ووجدك المبرح هوانًا ونسيانًا. إن كنت كذلك فأنت وحدك الذي يستطيع أن يدرك ذلك الأثر العميق الذي خلفته في نفسي تلك الفتاة الناشئة بصوتها الساحر الجميل. غناء كأنفاس الفجر ندية لينة، وشدو يصافح الأسماع في رفق ولين كنجوى العاشقين في هدأة السحر وقد بسمت لهما الدنيا وهاودتهما الأقدار والسلام!!.

ـ (لا، بل يخيل إلي أنه مجرد من كل عواطف الحنان والمحبة، وهو بالفعل عاطل من كل ما يسمو بالإنسانية عن حضيض البهيمية الخرساء التي يرسف فيها ويجعل بها حياتي معه ضرباً من الشقاء والتعاسة لا مثيل له).

ـ (لا أفهم! بل الذي سمعته هو أنه يحبك حباً لا حد له، إنه يكاد يعبدك!).

ـ (يعبدني! هه. . . إنه يعبد جسمي فقط يا أختاه! إنه وثني شرير!).

ـ (يعبد جسمك فقط؟ ماذا تقولين يا روحية؟).

ـ (آه يا أمينة! كم يخجلني هذا الحديث الذي يدور أكثره عن اللحم والجنس، ولا يدور شيء منه عن القلب والروح؟. . . يا لتعاستي!).

ـ (يبدو لي أنك وجدانية أكثر مما يجب يا صديقتي!).

ـ (وجدانية؟ إن النبع الوحيد الذي تصدر عنه الفضائل هو الوجدان يا أمينة؛ إن الأنبياء والشعراء والفنانين لا

يفهمون الحياة إلا عن طريق الوجدان؛ بل الله جل وعلا حين خاطب الناس في كتبه المنزّلة لم يخاطبهم إلا عن طريق بصائرهم، والمؤمن الحق هو كل صاحب بصيرة نيرة ووجدان سليم وقلب نابض رقيق. . . والحب، الذي ينبغي أن يكون أساس كل حياة زوجية، أليس هو أصدق صورة لل. . .).

ـ (صار حديثنا فلسفة! يا روحية احمدي الله على أن رزقك زوجاً لا يقصر في شيء من طلباتك. . . زوجاً غنياً ذا سمعة طيبة. . . له مركزه في الحياة).

ـ (هذا حق. . . ولكن الحياة ليست قصراً منيفاً وأكلة سمينة وخزاً وديباجًا. . . إن هذه الأشياء أحقر ما تصبو إليه نفس عالية يا صديقتي، ألا تفهمينني؟).

ـ (بل أفهمك جيداً؟ أنت شاعرة، وكنت تحلمين بزوج شاعر! أفيقي يا أختاه إلى حقيقة هذه الحياة الدنيا! الدنيا جد فلا تجعليها حلماً طارئاً وخيالاً مغرقاً في خيال. ماذا كنت تريدين بيومي أفندي أن يكون؟).

ـ (يا أمينة أنت تقسين علي قسوة شديدة. يا أمينة أنت فتاة متعلمة مثلي، وقد طالما حلمنا بزواج هنيء يتصل بالروح أكثر مما يتصل بالجسم. . . أنت على حق، لا ريب في ذلك، فيما يتعلق ببيومي من الوجهة المادية. هو رجل غني، ولكنه فقير جداً في ثقافته، فقير جداً في حساسيته، فقير جداً في فهما الدنيا الجديدة والحياة الجديدة. إنه يأكل جيداً ويلبس بأناقة ويشتري لي الجواهر والحلي بسخاء. . . ولكنه يمزق كتبي ويخرق رواياتي ويعنفني كلما رآني أقرأ مجلة، وإذا أحببت أن ألعب على بياني بَرَم وتسخط وتكلم بصوت عال ليفسد موسيقاي، والويل لي كل الويل إذا استأذنته في رياضة إلى الريف أو في متنزه عام.

إنه يحنق، وسرعان ما يتهم، وهو إذا اتهم كان كالبركان يقذف بما فيه دون وعي. . . إنه لا يطاق. . . إنه بهيم يا أمينة. . . إنه بهيم، وأستحي أن أزيد!!).

ـ (وما هذا الذي تستحين من ذكره؟ أيستعمل ال. .).

ـ (يستعملها؟. . . إنه يحب أن تكون لياليه كليالي ألف ليلة. . . وهو يتفنن في ذلك، وهو بذلك يرهقني ويضاعف بلواي، وهو يجعل لياليّ جحيماً مستمراً وشقاء مستديمًا. . . تشممي بخيالك فمه القذر الملوث الكريه، الذي تتصاعد منه مع رائحة الخمر ألف رائحة، يعبث بفمي وخدي ووجهي عبثاً وحشياً لا حنان فيه ولا تلطف، عبث الذئب الجائع الحمل البريء. . . أمينة. . . ارحميني. . بحسبنا هذا الحديث الطويل. . . وإلى الملتقى. . .!).

ولم تدر هذه الزوجة التعسة أنها كانت تشكو بثها إلى غريمتها الشقية التي كانت تحاول جهدها أن تصيد هذا الزوج الغنيّ الشهوانيّ! المتلاف وأن تقسر خيره كله: مالاً ودماً على نفسها! لم تدر الزوجة التعسة أنها كانت تفعل ذلك، وأنها كانت تعد السم لنفسها وتضعه بيدها الساذجة البريئة في كأسها!

لقد حاولت روحية بكل الوسائل أن تصلح من حال بيومي أفندي؛ كانت تعظه مترفقة به، وكانت لا تغلظ عليه إما خوفاً من بطشه بها، وإما إبعاداً في محاولة التأثير عليه

بالأسلوب الرقيق والبيان الرشيق والروح الطيبة والقلب البار، وكانت تنيله منها للذة الوحش، ثم تنتزع منه الوعد بعد الوعد بالتوبة عن الخمر وهجر المخدرات، وكان يخبث ويمكر فيصغي إليها حين تنهض إلى بيانها فتوقع لحناً أو نصف لحن، ولكن البهيم الثاوي بين أضلاعه كان يهيج به فينهض فجأة ويحتملها بين ذراعيه الجبارتين ويمضي إلى المخدع.

لقد كان يعبد جسمها عبادة! ولكنه لم يكن بمؤمن بجسم واحد! بل كانت له آلهة كثيرة وأرباب متعددة، يخلو إلى أي منها كلما أمره شيطانه أو هاجه هواه. . . وكانت أمينة الفاجرة إحدى هذه الآلهة، وقد عبدها أول ما عبدها في منزله. . . حينما كانت تزور زوجته اليائسة التعسة، فسمع صوتها المخنث وضحكها الفاسق يرن أرجاء المنزل، فزلزل قلبه، ومادت نفسه، وسَال لعاب شيطانه المجرم إلى قطف الثمرة المحرمة. . . التفاحة المشؤمة التي ما زالت تينع وتتأرج، وتملأ الدنيا باللذات الوضيعة والفسوق والخباثات.

ولم يكن من العسير على بيومي أن يصيد هذا الصيد، فلقد غافل زوجه وشك قلب أمينة بغمزة قوية قاتلة من عينه الصنَاع فحمست إليه أولى رسائل الغي، وأول وحي الضلال؛ وسهل عليهما بعد ذلك التلاقي في أقاصي المدينة، هذا في غفلة من زوجه، وهذه في غفلة من أعين الرقباء.

لكن أمينة كانت فتاة تعمل على أن تصيد لا أن تُصاد، لذلك كانت تمني بيومي ولا تقع في شراكه، وكانت تشتري منه ولا تبيع له، وكانت موقنة أنه لها يوماً من الأيام، وكان لا يهمها أن يشتغل قلبه بالعصبة القوية من الساقطات اللائي يتجرن بأعراضهن، فهي تعرف، إذا خلص لها أمره، كيف تعالج هؤلاء بالنعْل، لا بالأسلوب الرشيق والبيان الرقيق كما تعودت روحية أن تصنع! وكان لأمينة من جسمها الممتلئ وقوتها الخرافية كنز مدخر ليوم الفصل بينها وبين غريماتها.

وضاقت روحية ببيومي وبأمينة، ولاحظت ما رَابَها من سلوكها الأخير، وأفلحت في ضبطهما يتناجيان، فراحت

غير مبقية على شيء . . . راحت تفرج عن جمالها الحزين، وانطلقت في المتنزهات ودور السينما تمثل فصولاً من درامة الشباب وتستعيد ذكريات سعيدة وأحلاماً أثيرية محببة . . . ذكريات الحب الذي كانت تعذب به قلوباً غضة وأنفساً رطبة، وأحلام الماضي القريب الذي أفلت بالهناءة كلها من يديها . . . راحت ترسل من عينيها الساجيتين سهاماً تعرف كيف تحيي بها آمالاً قضى عليها هذا الزواج التعس النكد، ومطامح هدمها السيد بيومي بذهبه الكثير الجم، وجاهه الطويل العتيد .

ـ (روحية! . . . أوْه! عفواً!) .

ولم تكلم صاحب الصوت المتلجلج، وهو شاب طوَالٌ تبدو عليه مظاهر الفتوة ومخايل القوة، ولكنها لم ترفضَ أن تبتسم ابتسامة خمرية ساحرة، ومضت نحو شباك التذاكر تبتاع واحدة؛ وارتبك الفتى قليلاً، ثم أصلح من هندامه (ربطة العنق فقط) وابتلع ريقه، وانطلق يزاحم الجمهور حتى أخذ مكانه خلفها، وانتظر حتى كانت عند الشباك، ومدت يدها بالنقود، فصاح هو من خلفها :

ـ (من فضلك يا آنسة! التذكرتان متجاورتان. لا تأخذي نقوداً! هاتي بقية جنيه! . . .) .

والتفتت روحية فوجدته الشاب نفسه! صلاح!

صلاح الذي كان يوماً من الأيام أجمل ابتسامة في حياتها، والنور الإلهي الذي يضيء ظلمات نفسها . . . لقد أوشكت أول الأمر أن ترده وتقسو عليه كزوجة أبية وفية، ولكنها لم تستطع، بل التفتت إليه . . . وشكرته باسمة . . . ودخلا إلى الصالة وجلسا على كرسيين متجاورين، ولم يسعهما يتكلما كلمة واحدة! . . . وكان بيد كل منهما منهاج للحفلة، فظلاً يقلبانهما ألف مرة، وأكبر الظن أنهما لم يقرآ حرفاً واحداً مما فيها . . . وكان صلاح، كل دقيقتين أو ثلاث دقائق، يخالس روحية نظرة فائضة بالحزن، مبللة بالدمع، صادرة من أبعد غور في روحه المعذبة الشقية . . . ثم يقول لها (سلامات يا روحية!!) وتجيبه روحية، بلسان خجول متلعثم، عارف بما يعنيه صلاح : (أهلاً . . . و . . سهلاً!) ثم قال لها صلاح فجأة : (روحية، أليس خيراً لنا أن نؤجل هذه الحفلة إلى

غد، ونمضي من هنا فنستنشق الهواء الطلق في سفح الأهرام. . . الليلة مقمرة. . . أليست هذه فكرة؟!).

ووافقت روحية، ثم حملتهما السيارة في طريق الأهرام. ومع ذلك لم يتكلما أيضاً!! أليسا هما الآن في طريق خوفو؟ وهل تكلم خوفو من يوم أن دفن في حصنه المشيد!!).

وانتحيا من الناس ناحية، وصعدا فوق الصف الرابع أو الخامس من حجارة الهرم الأكبر مما يواجه الضوء الفضي المنبعث من القمر. . .

يا لليالي الساحرة المقمرة يا مصر! الصحراء الأبدية تتواثب في اللانهاية، تتسمع شكوى الفتاة المعذبة التي فقدت حبها وشقيت بزوجها؛ وأبو الهول الرهيب الصامت يرهف سمعيه هو الآخر؛ ومائة فرعون عظيم سيسمعون قضية الحب والشباب والزواج، والنسيم الشمالي سيمهد للعتاب البريء. . . والقبل!

وحب اللحم سيغدو شبحاً بعيداً قاصياً، ويحل محله حب مأواه الروح ومصدره القلب ومطهره العين وموسيقاه الكلمة الطيبة، والتمتمة الحلوة، والعبارة التي تخنقها

العبرة، والآهة العميقة الحارة يرسلها الفؤاد الملتاع الحزين! وستكون القبلة ترجمان هذا الحب القديم الذي أتاحت له المصادفة أن يحيا حياة ثانية موفورة، وسيغار القمر المطل من لازورد السماء المصرية من كل قبلة يطبعها صلاح على جبين روحية. . . ذلك لأن القمر يحب؛ ألستَ تراه ممتقعاً مسهداً ولهاناً؟!

ـ (روحية! . . .).

ـ (. . . ؟ . . .).

ـ (لعلك سعدت بهذا الزواج الغني الموفق؟).

ـ (سعادة لا نهائية يا صلاح. . . مثل هذه الصحراء. . . هه. . .)

ـ (والسعادة اللانهائية التي تكون كالصحراء، تكون كيف!).

ـ (تكون غامضة مشحونة بالأسرار. . . ألغاز! ألغاز يا صلاح! أتعرف الألغاز؟).

ـ (إذن، أنت سعيدة، لأن السعادة الغامضة أروع ألوان السعادات!).

ـ (هه! متى صرت فيلسوفاً يا صلاح أفندي؟).

ـ (منذ افترقنا هذا الفراق الذي حطم. . .).

ـ (حطم. . . حطم ماذا؟).

ـ (حطم أماني، وهدم قلبي. . .).

ـ (خير لي ولك ألا نفتح كتاب الماضي!).

ـ (بل سنقرأه صفحة فصفحة!).

ـ (صلاح!).

ـ (ماذا؟).

ـ أتحب أن نزور معبد أبي الهول الساعة؟).

ـ (لماذا؟ ماذا نصنع هناك؟).

ـ (نتحنَّث! نتعلم الصمت فلا نتكلم في هذه المسألة!).

ـ (إذن لن نذهب، بل سنبقى هنا! وسأكلمك في زوجك؟ هل أنت سعيدة به حقاً؟).

ـ (قلت لك سعيدة! سعيدة جداً، إنه يحبني. . بل يعبدني! لقد كان يأكلني منذ أسبوعين!!).

ـ (يأكلك؟).

ـ (أي والله! ألست حلوة جداً؟).

ـ (الوحش!).

ـ (لا، لا تسب زوجي!).

ـ (بل أنت شقية به. . . قلبي يحدثني! أنت تكرهينه؟).

ـ (صلاح!).

ـ (أنت تكرهينه جداً!).

ـ (إذن من عسى أن أحب؟).

ـ (تحبين. . . ! تحبين فتى غيره! الحب لا يشترى بذهب الأغنياء! الحب لا يشترى بذهب الأغنياء! الحب تصنعه الأعين وتزرعه في القلوب، بذرة من الطهارة يرويها نبع من الإخلاص!).

ـ (ومن يا ترى يكون هذا الفتى إذا كان؟).

ـ (من يكون! يكون الفتى الذي عرفك وتغلغل في كل جوانحك).

ـ (الفتى الذي عرفني وتغلغل في كل جوانحي لم يخلق بعد! . . .).

ـ (روحية!).

ـ (أؤكد لك!).

ـ (روحية؟ أنت تقتلينني!).

ـ (آه! أهو أنت هذا الفتى إذن؟).

ـ (روحية! أنا هو. . . أنا صلاح. . . هل نسيت؟).

ـ (. . . ؟. . .).

ـ (إلى متى تفترق أجسامنا وقلوبنا متحدة متآلفة يا روحية؟).

ـ (. . . ؟. . .).

ـ (تكلمي! غير معقول أن تكوني نسيت! يجب أن نلتمس مخرجاً. . .).

ـ (كفى! . . . صلاح! أسكت!).

ـ (لا! بل أتكلم! لن يخدعني لسانك! إني مطمئن إلى قلبك، إنه ينبض لي كما كان ينبض قبل زواجك. . . بل هو الآن يخفق خفقاناً شديداً، إنه يدعوني ويعطف علي. . إنه يُفضّلني. . . ولكنك تعاندين. . . ارحميني يا روحية. . . لن أدعك تفلتين هذه المرة ولو ربطتك السماء نفسها بسلاسل ذهبية! أنت لي، أنت لي دون هذا الحيوان

الذي انتزعك مني، أنا أعرف هذا أنا أعرف ما بينكما من بغضاء! أعرفه كله! ثقي أنه لن ينتهي عما نهيته عنه! البهيم! الوحش الذي يعذبك ويضنيك! سيصير فقيراً معوزاً عما قريب! لقد بدأ يبيع (أطيانه) ويرهن ما لم يبع! وجسمه سيتهدم، وقد يجرفك سيل خرابه؟ روحية! كبرياؤك تذيب قلبي وتصهره! صديقتك أمينة! لقد ذكرت لي كل شيء. . . أ. . .

ـ (أمينة!

ـ (أجل. . . أمينة أعز صديقاتك. . . الأفعى! اتركيه لها! سيقصم ظهرها أو تقصم ظهره قريبا. . . لقد سقطا يا روحية فاطمئني.

ـ (حسبك يا صلاح. . . كفى. . كفى. .

ـ (لا. . . ليس حسبي. . . ينبغي أن ننتهي!

ـ (ننتهي كيف!

ـ بأن تكوني لي. . .

ـ (أكون لك. . . وهل تقبل! أنا؟

ـ (أقبل؟ أنا أرجوك وأضرع إليك. . . لا حياة لي بدونك يا روحية!

وصمتا ساعةً، وكانت دموع نحيلة تسقي حبهما الذي انتعش بكل ما كان له من قوة وحياة، وكان الليل المصري الجميل يرثى لهما فيهب نسيمه عليلاً رخياً كأنفاس العذارى، وكان صلاح قد حمل رأس حبيبته على صدره الرحيب وراح يقبله ويربت عليه بأصابعه المرتجفة. . . وكانت أصابعه المرتجفة تنسى فتمر بكل ما فيها من حب وبراءة على الذقن وفوق الخدين. . . ثم. . . ثم انحنى صلاح يتشمم بفمه المرتعش فم ملاكه الغارّ في أحلامه فوق صدره. فاضطربت روحية، وانتفضت انتفاضة هائلة، وهبت من آلامها مذعورة، وتمتمت: (صلاح! لا يصح! أنا زوجة. . . لا أخونه حتى أرى!).

وكانت الساعة الواحدة! وقد سافرت آخر قاطرة من قاطرات الترام إلى القاهرة منذ بعيد! ولم يبق في الجهة سيارة تحملهما إلى هناك! فهل يقطعان الطريق على الأقدام؟ هذا أمر شاق. . .

ـ (لا تنزعجا! سأوصلكما في سيارتي!!

من هذا؟ من صاحب هذا الصوت! يا للهول؟ إنه بيومي، خرج الساعة فقط من فندق ميناهاوس!! إنه يترنح من السكر وهو لا يكاد يعي! وأمينة! أمينة معه أيضاً في تلك الساعة المتأخرة من الليل! ماذا كنا يصنعان هنالك؟

(أوه؟ أنت روحية؟ ومن هذا؟ آه! أحد عشاقك! ترى! أين كان يتمتع بك الليلة؟ هه؟ هناك! في حرم الفراعنة ولكن، اركبا، اركب، ليس الآن!. . .).

وصعد الدم يغلي في رأس صلاح، وأوشك أن ينقض على غريمه الوقح فيضغط على عنقه ليذيقه وبال أمره لولا أن نحته روحية وأشارت عليه بركوب السيارة. . . وحينئذ، فكر قليلاً وتقدم إلى مكان السائق. وجلست روحية إلى جانبه، وجلس بيومي وأمينة في الخلف، وانطلق صلاح ينهب الطريق الهادئ، وبرزت الأجيال القديمة كلها من تحت الرمال تنظر إلى أبطال القمة المؤلمة. . . الزوج الخائن. . . والصديقة الخائنة. . . والمحب الهائج. . . والزوجة الثائرة. . .

وجعل صلاح يفكر . . . وأيقن أن الخمر قد سيطرت على دماغ خصمه . . . فهل يستطيع أن يجعلها من جنوده ضده؟! سيرى . . .

واقتربت السيارة من الجيزة . . . وبدا النيل يصطخب من بعد . . . وأزبد عبابه وجرجرت أواذيه[1] . . . وأوقف صلاح السيارة على بعد مائة متر نحوها من النهر العظيم، ثم نزل منها وأشار إلى روحية فأطاعته ونزلت هي الأخرى . . وهي لا تدري لماذا نزلا، وحملق صلاح في غريمه فوجده يخاصر أمينة وقد غلبهما النعاس والسكر فناما نوماً عميقاً .

ـ (بيومي أفندي! بيومي أفندي! استيقظ! هلمَّ أنت فسق سيارتك، أنا ماض إلى بعض شؤوني في الجيزة!) .

وشخر بيومي شخيراً مفزعاً بأنفه الغليظ، ونهض من مكانه متثائباً ليجلس مكان السائق وهو لا يعي من أمره ولا من أمر سيارته شيئاً . . . ثم أدار العجلة دورة آلية

[1] أمواجه، الواحد آذي.

فانطلقت السيارة تطوي الطريق في خط مستقيم إلى . . . النيل . . . النيل الزاخر الأبدي!) .

ـ (حرام عليك يا صلاح . . .) .

ـ (أسكتي! لقد أنقذتك!) .

ـ وَيْ! اسمع! لقد انقذفت السيارة في الماء) .

ـ (بمن فيها طبعاً . . .) .

ـ (يا للقوة!) .

ـ (روحية، هلمي من هنا . . . من هذا الطريق) .

قبلة. . . .

كانت شغله الشاغل!

كانت تملأ أحلامه، وتحتل كل حنية من قلبه، وكان له قبلها حبيبات كثيرات من حبيبات الضرورة اللائي يعرضن في حياة الشبان، ثم ما يلبثن أن ينطفئ، كما تلتمع الشهب وتتلألأ، ثم ما تلبث أن تنطفئ، ويكون أحدها صاعقة تنقض على أحد فتسحقه. . . فلما عرفها، نسي هواه القديم الموزع، ووهبها حبه وإخلاصه ودموعه ودمه. . . ولو استطاع لوهبها كل حبه الذي ضيعه على الحسان عبثاً من قبل.

وكان لها هي الأخرى أحباء. . . ثلاثة أو أربعة. . . تتنقل بينهم كالفراشة الظامئة تمتص من كل زهرة رحيقها، ثم تلتمس الزهرة الثانية والثالثة. . . والرابعة التي تكون أطيب شذى، وأنضر منظراً، وأملأ بالعصير الحول. ثم عرفت (جمال) فشعرت كأن حاجزاً ضخماً قوياً يفصلها من الماضي الممتلئ بمتاعب الحب المصطنع، والهوى المزوق،

والغرام الكاذب الخداع. وشعرت لأول مرة في حياتها بنسيم عليل يهب في صحرائها المتلظية فيجعلها جنة تصدح فيها البلابل، ويتبسم في أفنانها الورد، وترقص في حنيَّاتها الملائكة. . . وتنشد وتغني!

وكانت تهب من نومها فلا تفكر إلا في (جمال)، وتذهب من هذه الغرفة إلى تلك وشخصه ماثل ملء ناظريها، وحبه يغمر نفسها، وكان يتمثل لها أكثر كلما توجهت إلى الحديقة تقطف الزهر وتأنس إلى الطير، وتجلس عند حافة الغدير، وترسل نظراتها الحائرة المضطربة في الشمس الغاربة خلف النخيل البعيد. . . وطالما كانت تستسلم لوحدتها هذه فترسل عَبرةً صغيرة، صغيرة جداً، تخفيها في منديل حريري صغير، لم تكن حملته قبل أن تعرف (جمال).

وكان (جمال) بدوره يحبها ويفكر فيها، ولكنه كان فتى غيوراً من مصر، وكل فتيان مصر غُيُرٌ أشداء في الغَيرة، وهو كان يعرف أن (سُمَيّة) لم تكن له قبل أن يلقاها وتلقاه، بل هو كان يعرف اثنين أو ثلاثةً من أحبائها المدنفين

بها، بل إن اثنين أو ثلاثة من أحبائها كانوا أصدقاءه، وكانوا يُسرون إليه، كل على حدة، بلاعج الحب الذي يعانون من (سمية)؛ وكانوا يشكون إليه دلالها وقلة اكتراثها بهم، فلم يتحدث إليه أحدهم عن (سمية) حديث سوء أو فحش، ولم يقل له أحدهم إنه نال من (سمية) خلوة فبثها غرامه، أو إنها حفلت به حين لقيها في الطريق فجزته عن ابتسام بابتسام، بل هم جميعاً كانوا في نصب من تمنعها الذي شف قلوبهم، وأضوى أجسامهم، وجعلهم في حيرة من أمرها.

على أن (سمية)، مع ذاك، كان لها أحباء تخلو إليهم قبل أن تعرف (جمال)، وكانت تعاطيهم من بضاعة الحب المُزْجاة قبلاً رخيصةً، غير حارة ولا وفية، ولا معنى فيها من هذه المعاني الرفيعة التي تصون الحب العذري، ويتجمل بسموها الهوى الطهري؛ وكانت تسرف أحياناً فتغشي المراقص والنوادى، وكانت تتضع فتحسو الخمر وتقبل الكؤوس، وكانت، من النشوة وجنون الشباب، تراقص الفتيان نصف عارية؛ وكان جسمها الجميل الممشوق،

ونهدها البارز المتأجج، ووجهها المستدير الحلو، وخداها الموردان الأسيلان، وأنفها الدقيق وفمها الرقيق وذراعاها الناعمان. . . كان كل أولئك يجذب إليها قلوب الشباب المستهتر، وكانت قلوب الشباب المستهتر من حولها كالفراش حول اللهب، تنقذف فيه لتحترق!

وقد عرفها جمال هنا! في نفس المرقص الذي تعودت أن تغشاه أكثر من المراقص الأخرى. وقد قدمها إليه أحد أصدقائه القُنَّع الأغنياء على أنها غانية، ولكن جمالاً عرف فيها الفتاة العذراء بقلبها، النقية بسريرتها، المتبرمة بهذه الحياة التي مظهرها دنس وفجور وفسق، وباطنها ضمير معذب وقلب محترق ونفس شقية، ودموع مُكتَّمة وأمل مفقود.

لقد كانت الأضواء المصنوعة البرتقالية والبنفسجية والصفراء والحمراء والبيضاء، تتكسر على ظهرها الأملس وصدرها المرمري، وساقيها الخدلجين، فتزيد معاني الفسوق فيها في قلوب محبيها الذين لم يكونوا يعرفون منها إلا ما تعرفه شهواتهم وخباثاتهم، في حين كانت هذه

الأضواء نفسها تضاعف معاني الطهر والبراءة فيها في نفس جمال. ولذلك ضغط على يدها الصغيرة الحلوة الناعمة ضغطاً هيناً ليناً حينما قدمها إليه صديقه. . .

وكان لقاء هو أول الطهر في حياة هذه الغانية، وهو أول الأمل المشرق والرجاء البسام.

لقد ضغط جمال على يد سمية ضغطة نقلت إلى قلبها الواسع ما في قلبه النحيل من حب ناشئ، تذوقته فلم تعرف فيه تلك النجاسة التي عرفتها من أحبائها الآخرين، وحدثت نفسها فوجدتها تنتقل فجأة من هذه الأرض الممتلئة بالأدران، إلى سماء فسيحة أثيرية ممتلئة بالأناشيد والأماني.

وفكر فيها جمال، وكاد عقله يصدفه عنها ولكن قلبه جذبه إليها بشدة وعنف، فاستسلم كالحمل، وألقى بروحه كلها في قبضة سمية.

والتقيا في خلوة، بعد مقدمات غرامية طويلة كلها حيطة وكلها حذر، وجلسا في منزل جمال الخالي من كل مخلوق عداه، وذهبا يتجاذبان أطراف الحديث الحي. . . ثم صمتا فجأة وتوسطت بينهما نظرات مستطيلة غائرة ممتلئة

مغناطيساً عجيباً. . . ولم يقو جمال على هذا السحر المنبعث من عيني سمية، فأطرف برأسه، وأخذ فوديه[1] بين يديه، وانفجر يبكي كالطفل، وسمية تتفرس فيه وتتألم. . ولا تدري ماذا تصنع!

سمية التي خبرت من ألوان الحب ألفاً وألفاً، لم تر في حياتها مثل هذا المشهد العجيب مرة واحدة، لأن كل الذين اكتووا بنارها كانوا من طلاب جسمها الخصب، وجمالها الفتان، أما جمال، فقد عرف من ابتساماتها الحزينة، ونظراتها المترعة بالمعاني أنها جديرة بغير هذا اللون من الحب الشهوي الدنس، جديرة بحب جديد نقي يوائم هذه الناحية المستورة العميقة من نواحي نفسها الكريمة الرحيمة الناقمة على الحياة، الباحثة عن قلب واحد كريم من ملايين القلوب التي يزدحم بها العالم من حولها.

دهشت سمية، وجلست تلقاءه مسلوبة اللب ذاهلة القلب، لا تدري ماذا تقول، ولا كيف تعالج منه هذا البكاء وذلك النحيب. . . لقد كانت تظن أنه يستطيع أن ينال

---

[1] الفود: جَانِب الرَّأس مِمَّا يَلِي الْأُذن والشعر النَّابِت فَوْقه.

منها كل ما يشتهي، فإنهما بنجوة من الناس، ولا أحد يستطيع أن ينفذ إليهما ولو بنظرة. . . فلمَ لمْ يداعبها جمال؟ ولمَ لمْ يداعب كفيها على الأقل؟ لمَ لمْ يجلس إلى جانبها على الكرسي الرحيب فيضع رأسه على صدرها كما يفعل العشاق، أو يأخذ رأسها فيضعه على صدره، ثم يبحث بفمه في شعرها المجعد الأسود الفاحم! لماذا لم يحاول أن يُقَبِّلها؟ إن القبلة هي عربون الحب كما يقولون! فلم لا ينقض جمال على فمها الحلو فيسقي من سلافته قلبه الظامئ؟ لا! لم يفعل، ولم يحاول أن يفعل. . . بل ظل يبكي كالطفل. . . بكاءً ساكناً هادئاً، لأنه صادر من القلب، بل من أعمق أغوار الروح. . .

(أ. . . أظن بحسبك ما بكيت يا جمال؟

(. . . ؟. . .

(أهذه أول مرة إذن؟. . .

(سمية. . .

(جمال. . .

(أتعطيني موثقاً يا سمية؟

(وعلى أي شيء أقاسمك يا جمال؟

(على أن تكوني لي وحدي يا سمية. . . على أن تقطعي صلتك بكل من عرفت قبلي

(وهل عرفت أحداً قبلك؟ أنت واهم!

(أنت تهزأين بي يا سمية!

(لا. لست أهزأ بك، بل. . . أنا. . . أحبك

(وأنا. . . وأنا يا سمية. . . بل لقد فنيت فيك

(ثق أنني لم أقلها لأحد قبلك على كثرة من تعرف ممن ظننتهم أحبائي!

(إذن ستكونين لي وحدي! أليس كذلك؟

(سأكون لك! وأقسم لك إنني لم أكن لأحد قبلك

(وعلام تقسمين يا سمية؟

(أقسم على نفحة السماء التي غمرت قلبي حين ضغطت على يدي ليلة لقيتك. . . بل أقسم على الدموع الغزيرة الغالية التي ذرفتها أنت الآن!

ودنا منها جمال. . . وصافحها، ولكنه لم يقبلها؟!

ونقل من القاهرة إلى أسيوط، وانتقلت (سمية) معه، ثم تزوجها هنالك، ولكنه كان يعاشرها كما يعاشر الفنان دُميته، يهواها ويتعبدها، على عكس ما يقول الشاعر العربي؛ وكان شديد الغيرة عليها، وكان يغيظه منها كثرة الخطابات التي ترسلها إلى القاهرة والتي تصل منها، وكانت هي لا تبالي أن تقع هذه الخطابات في يده فيقرؤها، ويمزق منها ما يشاء، ويبقي على ما يشاء ويرد إليها ما يشاء.

ولكن خطاباً واحداً أهاجه بما حمل إلى سمية من عبارات ليس يصدر مثلها إلا عن فؤاد العاشق ولا يستطيع أن يكتبها إلا قلم وامق. . . وإن تكن التي كتبته امرأة كما يُظَن من الإمضاء.

(ومن عَلِيّة هذه التي تكتب هذا الأسلوب المتهدج يا سمية؟)

(الأسلوب المتهدج؟)

(آي. . . الأسلوب الذي يخفق بحبك، ويتنزل كالوحي عليك؟)

(جمال! ماذا تريد أن تقول؟)

(لا شيء! ولكني أعبدك يا سمية! أعبدك! أسمعت!)

(بل أنت تعذبني بشكوكك!

(فقط أريد أن أعرف من علية هذه؟)

(أقسم لك بدموعنا إنها فتاة. . . ولكن لا تعرفها!)

(. . . . . ؟ . . . . . .)

وذهب جمال إلى (المصلحة) وغادر سمية تجتر آلامها وحدها؛ وكان قد أهدى إليها صورته يوم أن تقاسما على أن يكون كل منهما للآخر، وكانت سمية تعتز بهذه الصورة أيما اعتزاز، لأنها كانت تذكرها بالقلب الذي نبض بحبها غير مشوب بغرض دنيء، كما كانت تذكرها بأول نبضة خفق بها قلبها بحب بريء. . . فكانت تدمن النظر إليها وتبكي. . .

وعاد جمال مرة من عمله مغضباً حانقاً، لأن لئيماً من أصدقائه عرف أنه تزوج من سمية فكتب إليه خطاباً بإمضاء مستعار يهيجه به، ويذكر له من تاريخ صاحبته ما يريد أن يفصم به عرى تلك الرابطة التي ربطت قلبيهما، فتعجل جمال موعد انصرافه، ويرجع إلى المنزل ليرى رأيه في سمية،

وليضع حداً لافتتانه بها، وليخلص ضميره المعذب من هذا الشقاء الطويل.

وكان يحمل معه مفتاحاً لسكنه، وكان كل مرة يفتح الباب دون أن يسمعه أحد، وكان بذلك يؤلم سمية غاية الإيلام، لأنها كانت تعتقد أنه يتجسس عليها.

ودخل في ميعاد مبكر لم تكن تنتظر مجيئه فيه، وسار بخطى متئدة حتى كان عند باب المخدع، فوجدها بين مصراعي دولابها الكبير تقلب أوراقاً، ثم تتناول من بينها صورة فتحدق فيها نظرها . . . وتلثمها وتبكي . . .

وكان السافل الوغد الذي كتب إليه الخطاب الذي أهاجه قد ذكر له أنه أهدى إليها صورته أكثر من مرة، وأنها أهدت إليه صورتها، فوقر في قلبه أنها تلثم الصورة المجرمة التي تدخرها ككنز لهذا الحيوان.

وفي ثورة جنونية، انقض جمال على سمية، وضغط بكفيه القويتين حول عنقها، فوقعت على البساط الوردي الفخم، بين الموت والحياة!

ولكن . . . وا أسفاه! لقد نظر إلى الصورة التي كانت بيد زوجته فوجدها صورته التي كان أهداها إليها ليلة الموثق، فأفاق من وسواسه، وانحنى يقبل سمية بفم مجنون، وشفتين مرتجفتين، ولكنها لم ترد عليه بكلمة . . . فحسبها قد قضت!

وصاح جمال بالخادمة . . .

ثم هرول إلى الخارج ليحضر طبيباً . . .

ولكنه عاد ليجد الخادمة تقول له:

* (سيدي . . . لقد سافرت!

* (سافرت؟!

* (أجل . . . سافرت إلى القاهرة! هكذا قالت لي، وهاك خطاباً منها. وفض جمال الخطاب فلم يجدها زادت على هذا السطر.

(جمال! اضطررتني اضطراراً أن أعود إلى الذئاب لتغتذي بمرضي وتوغل في دمي، والذي يؤلمني أنني أكاد أضع لك ولداً في طريقي إلى القاهرة!!).

وكاد جمال يختنق!

وهرول إلى المحطة لأنه نظر إلى ساعته فوجد أن القطار لا يتحرك قبل عشر دقائق. . . ولكنه وصل إلى المحطة ولم يجد سمية هناك، فانتحى ناحية وأخذ يفكر. . . ثم ذرف دموعاً سخينة أخفاها في منديله، وأيقن أن سمية قد سافرت في سيارة.

وعاد إلى المنزل محطم القلب مهدم الجسم خائر القوى.

ولكنه ما كاد يطرق باب المسكن حتى سمع صوصوة، ثم دخل فرأى طبيبة كأنها ملاك تحمل بين يديها ابنه. . . المولود الصغير. . . ورأى سمية ممددة على السرير ضعيفة موهونة واهية فانهمرت الدموع من عينيه، وتقدم إلى الطبيبة فاحتمل الطفل وطبع على جبينه ذي الأسارير قبلة باكية، ثم سمع سمية تقول:

* وأنا أيضاً يا جمال!

* (وأنت أيضاً ماذا يا ملاكي؟

* (وأنا أيضاً. . . قبلة مثل هذه. . .

فانحنى على وجهها الحزين وطفق يقبله حتى طبع عليه ألف قبلة، والطبيبة العذراء تنظر وتتعجب!

وكان الفصل شتاء، وكان الموقد يتأجج بجمر شديد ونظرت سمية فرأت جمالاً يخرج من جيبه خطاباً ويحرقه، فتبسمت وهي تقول:

(ضحية جديدة لا بد؟!

ولكن جمالاً لم يرد. . . . بل مضى يساعد الطبيبة في لف الطفل!!

العذراء الدميمة

لم يتجاوز التفاوت بينهما في السن غير عامين، ولكنه في الجمال وحسن الخلق كان جد عظيم. لازم النحس (عصمت) منذ رأت النور، فقد ولدت وأمها تكاد تفقد الحياة من معاناة مرض خطير، بله آلام الوضع، ولم يكن للأسرة هم إلا إنقاذ الأم من براثن الموت، ومحاولة إصلاح ما أفسده مرض ذات الجنب من جسمها الرطيب، فلم يرحب أحد بالقادمة الجديدة، أو يفكر في أمرها حتى الأم ـ وا أسفاه ـ كأنها في هذه اللحظة قد فقدت غريزة الأمومة، فلم تنظر إليها حينما تلقفتها يد القابلة إلا كما تنظر إلى خرقة بالية!

ولم يكن حظها من عناية أبيها بأوفر منه عند أمها، فكثيراً ما كان يراها وهي ملقاة على الأرض تشارك الكلب في مزجره، وفي يدها هنة تشبه قطعة الخبز دون أن تتحرك في قلبه عاطفة الأبوة نحو التي أتى بها إلى الحياة على كره منها؛ وهكذا سرت العدوى إلى سائر أفراد الأسرة وكأنها وترتهم

جميعاً قبل أن تأتي إلى هذا العالم، فلما واتتهم الفرصة ثأروا لأنفسهم بإهمالها والحط من شأنها، ولولا وشيجة الإنسانية لقضت هذه التعسة جوعاً فأراحت واستراحت.

اسندوا أمر العناية بها إلى ظئر حامل كسول، فلم تعطها من الرعاية إلا المقدار الذي يسمح لها بالحياة، فشبت إلى أسفل، وكأنها كانت تسير في نموها نحو مركز الأرض!

شاء القدر أن يصور للناس صورة ناطقة للقبح الجسماني، وينصب تمثالاً حياً للتنافر الجسدي، فكانت (عصمت) كما أراد: عينان غائرتان لا يكاد يبدو منهما نور الحياة، وخدان شاحبان بل عظمان عاريان إلا من ذلك الجلد الحائل، بينهما نتوء يشبه الأنف، تحته شفتان ضل سبيله إليهما الدم!! يضم كل هذا وجه أشبه بوجوه الموتى، إن فقد معالم الحسن فلم يفقد معاني الرحمة والرثاء، ينوء بذلك جذع ناحل وأطراف هزيلة.

وهنا يجدر أن نسأل أنفسنا: أيكون القبح عقبة في سبيل حب الوالدين لفلذة كبديهما؟؟!...

هذا ما لا نستطيع الجواب عنه، ولكن الذي نعلمه أن عاطفتهما نحو (عصمت) كانت أشبه بالرحمة منها بالحب، وحسبنا مصداقاً لهذا محاولتهما البعد عنها تحت تأثير غريب كان يستولي عليهما كلما لمحاها.

استردت الأم صحتها بعد جهاد عنيف، ودبت العافية في جسمها دبيب الراح في جسم شاربها، فشبا خداها، وبرقت عيناها، وغمرت الهناءة وجهها، وجرى ماء الحياة في جميع أطرافها، وبينما هي على وشك الظفر بالنصر الحاسم على عقابيل المرض المنهزم؛ إذا هي تحس حركة في أحشائها تؤذنها بزائر جديد، فاستخفها السرور، وحملت البشرى إلى زوجها باسمة، ثم ذاع المخبرين أفراد الأسرة، فعمهم البشر كأنه يولد في هذا المنزل لأول مرة، وكأن (عصمت) المنكودة الحظ لم تكن في الحسبان!

أخذوا في إعداد العدة لاستقبال هذا الوليد، وطفقت الوالدة تهيئ الأقمطة الناعمة، والأقمشة الفاخرة، وذهب الوالد يبحث في الأسواق عن أحسن مهد وأثمن هدية، وكان

شغله الشاغل في شهور الحمل البحث عن كل ما يسعد الوالدة والمولود.

وبينما (عصمت) تعبث في غرفة الخدم، تحبو كأنها الحشرة لا يعبأ بها أحد، ولا يعيرها التفاته إنسان، والجميع في شغل شاغل ـ فقد جاء الأم المخاض ـ إذا القابلة تقول: كأنها قطعة من نور. .! يا أم ابنتي هلا نظرت إليها.؟ وكان هذا إيذانا منها بانتهاء الأمر. . . لم تصدق الأم بادئ بدء، وسألتها جازعة: تشبه من يا ترى؟ وكأنها تخاف أن ينكبها القدر مرتين، ولما يزل شبح (عصمت) يتراء لها.

إجابتها بلهجة الظافر. تشبه من.!؟ لمن يحتمل أن تشبه سوى أمها وأبيها. .!؟ وشاع البشر في وجه الأم حينما وجدت مصداق قولها في وجه ابنتها الجميل التكوين.

علم أهل الحي فجاءوا مهنئين، وحفلت الدار بهم، فصارت الأم بما ملكها من الزهو بوليدتها الجميلة تكشف لهم عن وجهها، وهم يرتلون آيات الإعجاب بها ويكررون كلمات التهنئة، وأخذوا يتخيرون اسماً لطفلتهم، وأي اسم يؤدي كل هذه المعاني التي تنم عنها ملامحها من الحسن

الرائع؟ إن كل ما نذكر من الأسماء غير واف بتلك المعاني. فليبحث أبوها إذن في المعاجم، وليسأل الغادي والرائح علّه يظفر بضالته التي ينشدها. . . بعد جهد، خطر له اسم لبطلة قرأ عنها في إحدى القصص، فأطلق عليها (لمعان).

تعاقبت الأيام، وشبت (عصمت) فبدأت ترقب طفولة أختها المرحة المترعرعة، وترى من إعزازها وإعجاب الأسرة بها ما لم تظفر في يوم من الأيام ببعضه فتعجب، ولكن سرعان ما تهديها غريزتها إلى أن بها نقصاً، فيعتريها شعور مهم غامض؛ أهذا هو السر في إنها ليست محبوبة، وأنها أدنى منزلة من تلك التي تتبوأ ذراعي أمها مفترة الثغر باسمة الملامح؟ كانت (عصمت) مرهفة الحس إلى حد بعيد، وكأنما عوضها الله سبحانه ما نقص من خلقها بكمال حسها ودقته ـ ويا ويل من دق حسه وقصرت يده عما يريد. . !

كانت ترى الفارق كبيراً في معاملة أبويها لهما فيعتريها من الألم والحسرة ما دونه وخز الإبر ووقع السهام، ينظر الوالد إلى أختها التي لا تفارق ذراعي أمها فيشع من عينيه السرور، حتى إذا وقع بصره على (عصمت) أطلت الشفقة

من وجهه، وكأنها تسخر من هذا المخلوق العجيب، وربما تصدق عليها بقبلة تدرك معناها فتشعر برعدة المحموم من فتورها وبرودتها، وقد يخيل إليها إن الثلج طفق يذوب من موضعها، فتذوب حسرة وألماً، وتجر جسمها الهزيل جراً وتنزوي في ركن قصي، ويعوزها البكاء فلا تجرؤ عليه؛ وقد تحاول التمرد على أخذها بجناية لا يد لها فيها فيقعدها العجز عن السير في هذه السبيل.

بقيت (عصمت) تعاني من أمرها ما تعاني، و (لمعان) تتفتح كزهرة الربيع، ترعاها عناية الأب ويكفلها حنان الأم وعطف الأسرة. . . أكسبها كل هذا نضارة فوق نضارتها، ونشاطاً فوق ما طبعت عليه من الخفة والمرح ودوام الابتسام، ولا عجب، فهذا شأن كل من اطمأن على أنه استوى على عرش القلوب وتملك ناصية الأفئدة.

أقبل العيد، وأشترى الوالد لكل من ابنتيه ثوباً من المخمل القرمزي الجميل، فكان لهذا ـ في أول وهلة ـ من الأثر الطيب في نفس الأختين ما سرهما، ولكن شد ما اختلف شعورهما بعد ذلك! رأت (عصمت) أختها وهي

تختال في ثوبها الجديد، وقد افاضت عليه من حسنها ما ضاعف بهاءه ورونقه، ثم تأملت نفسها فكادت تصعق. . . . . أنهما من نوع واحد! ولون واحد! ومن صنع يد واحدة! فما بال أحدهما يصعد إلى قمة الحسن، وينزل الآخر إلى أحط دركات القبح!؟ هل شارك الجماد أبويها في إذلالها والزراية بها؟ هل يميز الثوب بين الوسامة والدمامة حتى يصدمها هذه الصدمة الأليمة. . . !!؟

إذن أف له ما أقبحه، وما أشد بغضي له!. ناجت نفسها بكل هذا، والألم يحز في أحشائها حزاً تحس أثره اللاذع في السويداء من قلبها، وكأنها نسيت نتوء عظام كتفيها، وهزال جسمها، وشحوب لونها الأسمر الذي ضاعفه لون ثوبها الجميل؛ على حين تخلع (لمعان) من روعتها ونضارتها على ثوبها ما يزيده جمالاً وروعة.

هتفت بالأختين مربيتهما: هيا قبلا أبويكما وهنئاهما بالعيد. . . لبتا الأمر، ومشت (عصمت) على استحياء والهم يملأ فؤادها المكلوم، وقد سبقتها (لمعان) ـ وكأنها

ظبي أهيج ـ في خفة ورشاقة، ولكنها انتظرت مقدم أختها لتتقدمها في أداء هذا الواجب.

مشت البائسة مطأطئة الرأس، مكتئبة النفس، في وجوم يكاد يكون بلادة، ثم تناولت أيدي أبويها وقبلتها، فبادلها كل منهما بقبلة، وكأنما يقبلان جثة هامدة لما غشيهما من الحزن والكآبة، ولكنهما ما لبثا أن تهللا حينما جاء دور (لمعان). .

يا لله للمحدود التعس. !! حتى في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعا، ويتناسى كل حزين حزنه، وكل بائس بؤسه، تطعن هذه الشقية تلك الطعنة النجلاء!

ظلت (عصمت) شاخصة، وسرى من روحها الحزين تيار قوي شل حركات الجميع فجمدوا كأنهم التماثيل، ولم يخرجهم من هذه الحال إلا (لمعان) حينما تحركت، وكأنها أدركت فجأة مقدار ما أصاب أختها من غبن وما نالها من شقوة، فجاش قلبها بالرحمة والحب، فاحتضنتها وتعلقت بها، وبذلت جهدها حتى طبعت قبلتها على جبينها، ولكن (عصمت) لم تبادلها إياها، وكان هذا عن

غير عمد منها، فقد كانت شاردة اللب، كليلة الذهن، يضطرب صدرها بشتى الآلام وضروب الأوجاع، وقد أيقنت في هذه الساعة بما كانت لا تشعر به إلا محاطا بالغموض والإبهام، وحاولت أن تجزي أختها بما فعلت، فاحتضنتها وأرادت أن تقبلها، ولكنها انفجرت باكية في نشيج محزن، وأخذ صدرها يعلو ويهبط، وعيونها تفيض بغزير الدمع وهي تحاول منعه، ولكن هيهات فقد أفلت من يدها الزمام.

منذ تلك الساعة (وعصمت) في هم دائم، حتى الابتسامة التي كانت تزور شفتيها لماما، وكأنها ضلت طريقها إلى الثغور الفرحة، فأوقعها سوء الحظ في هذا الثغر الحزين. . . حتى هذه الابتسامة غادرتها إلى غير رجعة، فقد أزالت تلك الدمع الحارة التي ذرفتها عيناها يوم العيد الغشاوة التي طالما حجبت عنها الحقيقة في أيامها الأولى وأيقنت أن جرحها عميق بعيد الغور لا يرجى له برء، ولا يعرف له دواء، وكلما تقدمت سنها قوي عندها الشعور، وضوعف الألم. . . . . .

أما (لمعان) ففي شغل عنها بزينتها ولهوها ومرحها.

كبرت الأختان، وأشرفتا على سن الزواج، وأصبحت (لمعان) فاتنة المدينة، وغادتها الفريدة، وشرع الأبوان في إعداد ما يلزم لزفاف فتاتيهما، كسبا للوقت واستعدادا للطوارئ، فكانت (لمعان) تجلس الساعات الطوال، تصور لنفسها ذلك المستقبل السعيد الذي ينتظرها، بينما (عصمت) تتخيل في كل أداة تهيأ لها حية تنهش فؤادها، أو سهما يسدد إلى قلبها، فكل شيء يذكرها بذل الخيبة، ومرارة الفشل. . . .

الزواج! نهاية الأمل، ولقد فقدت الرغبة، وهل عاش لها أمل أو بقيت لها رغبة؟

لقد فقدت الأمل، ولقد فقدت الرغبة، ولم يبق لها إلا إحساسها، وكم كانت تجاهد المسكينة نفسها حينما تعرضها أمها إلى جانب (لمعان) على الخواطب. . . .

وهل تنتظر منهن كلمة الإعجاب التي لم تظفر بها في يوم ما من أبويها؟ وهل هن أشفق على إحساسها وأرحم بفؤادها منهما؟. . . . إذن فليذب كبدها، ولتتقطع

أوصالها، وهي تساق إلى ذلك الموقف سوقا، ولتتحمل على الرغم منها تلك المخالب التي تنشب في أحشائها وتمزقها تمزيقا، ولتتقبل كارهة ذلك الأعراض الساخر وقتما يأتلق للخواطب نور (لمعان) بجانب دمامتها.

ها هي ذي أمامهن تدور بعينيها في الغرفة تلتمس الخلاص كما يلتمسه الطائر السجين فلا تجده، وقد خيل إليها أن الفلك قد وقف عن دورانه في هذه اللحظة الطويلة، حتى إذا أذن لها بالخروج بادرت متهالكة وقذفت بنفسها إلى غرفتها وكأنها فرت من الجحيم فتغلق عليها بابها، وتنزوي في ركن من أركانها جامدة الحركة، كسيرة الجناح، واهنة القوة، لا تستطيع نزع ثيابها ولا النظر في مرآتها، وتظل شاخصة ببصرها إلى نقطة وهمية، وعواطفها تلتهب بين جوانحها حتى يكاد يحترق جسمها النحيل.

أما (لمعان) فتذهب متهللة إلى غرفة الخدم، وتسر إلى فتاة لعوب منهن كانت تصطفيها ـ ما كان من أمر الزائرات معها، وكيف كن يحدقن فيها ويداعبنها، خصوصا تلك السيدة الشابة ذات المخمل الأزرق المكسو بالفراء؛ كانت

تقص هذا على صاحبتها وهي مفترة الثغر، مشرقة الجبين، تنطق أساريرها بما استولى عليها من الزهو.

ظل الخواطب يترددن على منزل الأسرة عامين كاملين، و (عصمت) تكتوي بنار العرض عليهن، إلى أن صهرتها الآلام وحولتها إلى مخلوقة أخرى، إلى قديسة تنشد الصبر، وتطلب من الله العزاء، وكانت تسمع عقب كل زيارة همسا ينبعث من غرفة والديها لم تتبينه بادئ الأمر، إلى أن سمعت أباها ذات مرة يقول للمعان وهي تدخل عليهما الغرفة بغتة: لاشك يا ابنتي في أنك تقبلين الانتظار حتى تتزوج أختك بصدر رحب، أليس كذلك؟

فصمتت (لمعان) خجلا، ولكن هذه الكلمة فعلت في نفس (عصمت) ما فعلت فاعتزمت أمرا. وما زالت ترقب الفرصة لما اعتزمت حتى لاحت لها عقب زيارة بعض الخواطب، وقد طلب الوالد من ابنتيه أن يذهبا إلى مخدعهما، وحينئذ لم يخف على (عصمت) أن أباها يريد أن يخلو إلى أمها ليحادثها فيما جاء من أجله الخاطبات، فاختفت بحيث تنصت لحديث والديها دون أن يرياها.

سمعت أباها يقول: لا لا. لا يمكن أن نزوج الصغرى ونترك (عصمت) فريسة للهواجس، فتقول أمها وهي تحاوره:

لقد انتظرنا طويلا، وليس من الحكمة أن نغامر بمستقبل (لمعان) في سبيل أمل دلت الشواهد على أنه لا يتحقق، وإذا لم تتزوج (لمعان) فلا سبيل إلى زواج (عصمت) وتكون العاقبة تضحية الاثنتين؛ وهذه جريمة لن أوافق على اقترافها أبدا. . .

لم يجر أي حديث في شأن (عصمت) في زيارة من تلك الزيارات العديدة، ولم تذكر على لسان أحد بزواج، بينما تلح الخواطب إلحاحًا شديدًا في طلب (لمعان) فلم هذا العناد جريا وراء سراب خادع ووهم باطل؟

ولو أن سهمًا أصاب فؤاد (عصمت) لما تألمت كل هذا الألم الذي اعتراها عندما صك سمعها هذا الكلام. أي بلية جديدة وأي نكبة. !؟؟ أتكون عقبة في سبيل إسعاد أختها؟ لقد شربت كأسها وحدها صابرة محتسبة، فهل تكون سببًا في شقاء غيرها. . ؟؟. لا. إن هذا لن يكون أبدًا.

هذا ما تحدث به ضمير (عصمت). أما أبوها فأخذ يقول لأمها:

تحاولين عبثًا إقناعي بزواج (لمعان) أولا، وإني لأفضل تضحية الاثنتين على أن أرى كبرى بناتي تموت غما، وأكون مع القدر عليها.

واستمر في حديثه و (عصمت) ترتجف خلف الباب تأثرا، ولم تستطع كبح جماح عواطفها طويلا، فاقتحمت الباب عليهما صائحة:

كلا يا أبتاه. إن (عصمت) لن تتزوج، فهي لم تخلق للزواج؛ أنها دميمة، ولن يبحث الأزواج عن الدميمات، ارحمها يا أبتاه، ولا توقفها ذلك الموقف المؤلم، ودعها تحيا في ظلك ما قدر لها، إنني بائسة فلا تجعلني حائلا بين أختي وبين سعادتها ومستقبلها، وأجهشت باكية، فبكى أبواها رحمة بها وإشفاقا عليها.

مرت الأيام ولم يجد الأبوان أمام إلحاح (عصمت) وإصرارها بدا من زواج (لمعان)، وقد اغتبطت عصمت

لذلك اغتباطا شديداً، وكانت ترى في خدمة أختها وزوجها بعض السلوة.

انقطعت زيارة الخواطب منذ تزوجت (لمعان). وناءت (عصمت) بعبء ما مر بها من خطوب، فأصبحت وهي في عقدها الثاني كأرملة في الثمانين، وقد زهدت الحياة وملتها حتى وضعت (لمعان) طفلا جميلا فاتخذته ولداً لها، ولم تكن لتتركه لحظة واحدة، جعلت له من صدرها مهدا، ومن عنايتها حارسا فشب على حبها، ووجدت لذلك برد الراحة، فحببت إليها الحياة، وكانت تعتقد أنها جوزيت على جميل صبرها خير الجزاء حينما تداعب الطفل فيطوقها بذراعيه الصغيرتين، ويغمر وجنتيها الجافتين اللتين لم يسعدهما الحظ لثما وتقبيلا وهو يقول: خالتاه. . . ما أحيلاك يا خالتاه. . . !

-١-

جلس شوكت أفندي كاظم في حجرة الانتظار في مدرسة. . . يجيل طرفه في قطع الأثاث المبعثرة، وينقل النظر بين السقف والأرض والحيطان. لم يتغير شيء فيها عما رآه لآخر مرة منذ سنوات أربع؛ هذا النضد الصغير في زاوية الحجرة كأنه قطعة من أرض المكان فلم يتزحزح عن موضعه؛ وهذه الأريكة الكبيرة طالما تمدد عليها ولوى ذراعيه تحت رأسه وسبح في أحلام اليقظان؛ وهذه الصور على الحيطان تطل منها الوجوه الصغيرة، في أساريرها مرح الطفولة، وفي عينيها بريق الأمل - إنها في موضعها حيث صففها بيديه قبل سنين، ولكنها زادت أخرى، لاشك أنها صور الفرق التي أتمت دراستها بالمدرسة منذ نقل منها. . .

ودفعه حنين وشوق فنهض يتأمل صور تلاميذه الذين عاش بينهم شطراً من حياته في منزلة الأب الثاني، ثم

فارقهم وفارقوه منذ سنين بعيدة فوجاً بعد فوج إلى حيث لا يدري من فجاج الحياة. ما أسرع ما تمر السنون! أيهم الآن يذكره كما يذكرهم؟ لعل منهم صاحب المنصب الرفيع والجاه العريض وهو ما يزال حيث تركوه في منصبه وجاهه! . . . ووقف لدى صورة من عديد الصور المعلقة، ولم ينتقل عنها ولم يخفض بصره؛ لقد طافت برأسه ذكريات من الماضي، ذكريات حية ما يزال قلبه بدمها ينزف. وحدق في الصورة طويلاً تحديق العانس في المرآة تنعى الشباب وتتهم الزمن. . . منذ ثمان سنوات حين دعي ليجلس بين تلاميذه في هذه الصورة كان شخصاً آخر غير الشخص الذي يعيش اليوم، لقد كان يومئذ يعيش في واد من الأحلام: أحلام الشباب والمرأة والحب. أين هو اليوم مما كان؟ أما الشباب فقد أنهكته أحداث الزمن، وأما الحب فقد دفنه هناك ولفه في أكفان اليأس، وأما هي. . .

ودخل الضابط يحيه بصوت غليظ، في يده عصا ومن وراءه غلام. وأندفع عادل شوكت إلى أبيه حين رآه باسطاً ذراعيه، فلم يخشى عصا الضابط ولا صوته البغيض؛ وضم

الرجل ولده إلى صدره ومال عليه يقبله في ظمأ وشوق؛ وطأطأ الولد رأسه يعبث بأزرار معطف أبيه ويداعب سلسلته؛ وسبح أبوه في ذكريات ينشرها ويطويها:

لقد كان يحبها أعنف الحب وأرقه، ولم يكن يتمنى غير أن يظفر بها زوجاً يصفيها الحب ويخلص لها الوداد؛ وقد ظفر بها ونالها، فأين هو اليوم من سعادة الحياة؟! لقد أفلتها فلم يبق بين يديه من تلك المنى الساحرة غير لمحة ضئيلة يراها في عيني هذا الغلام.

وعاد إلى الماضي يسترجع ساعاته ولياليه، ويحصي على الزمن سيئاته وأياديه: لقد عرفها فتاة في إحدى الحدائق العامة مع أخيها الصغير فعطفه عليها دل متواضع وكبرياء تبتسم، وأحبها منذ ذلك اليوم وراح يعيش في وهم الأماني. . . واستطاع أن يلفتها إليه وأن يجعلها تهتم بأمره؛ ومدت إليه خيط الرجاء فتعلق، ومضت الأيام تقرب بينهما وتدني نفساً إلى نفس حتى أشعرتهما أنها كل شيء في حياته، وأنه كل شيء في حياتها. وشاركته سعادة الأمل، وأخذ يعد العدة للأمر العظيم يوم تكون زوجه،

وأخذت تسابق الأيام فمنحته من ودها على غفلة الأهل أشياء في إباء الراغب ورغبة المتأبي؛ ولم تكن أيام الوصال على وتيرة؛ فيوماً دلال، ويوماً عتاب، ويوماً يتنبه الرقيب من حيث يريد وتريد. . . وهكذا راح الزمن يذكي في صدريهما لواعج الشوق، ويضرم لهيب الوجد ـ أربع سنين متوالية بين لهفة وشوق وأمل؛ ثم زفت إليه.

لقد شعر يومئذ أن الدهر أتم عليه نعمته وأسبغ عارفته، ولكنه أعطاها مقادته من اليوم الأول، ولم يتلقها إلا بتقديس وعبادة، وظل بعدها في العبادة والتقديس!. وإنها لتحب السيطرة والسلطان، بعض ما في دمها من طباع الشركس؛ وإن فيه لطراوة ولياناً من ضعف العاشق الذليل؛ فأخذت تملي عليه أرادتها وهو كالكرة في يد الصبي. ولم تجد فيه رجل أحلامها الذي قدرت أن يكون، فراحت تنتقص من سلطانه وهي تتمنى أن يعاصيها ويتمرد على إرادتها فتشعر به زوجاً له مثل سيطرة الرجال.

وكانت كلما راحت تستثير فيه نخوة الرجل استخذى لها وتلاشت إرادته؛ لقد كان يجيد الغزل وحديث الحب،

ولكنه لم يكن يعرف كيف يملي إرادته، ويلوح للحب بالبغض؛ وكان يعرف كيف ينزل عند رغبتها حين تريد، ولا يستطيع أن يكون رجلا حين يريد. . .

ـ ٢ ـ

ورأت كل حاجاتها لديه مقضية؛ ووجدت نفسها الآمرة الناهية في هذه المملكة الصغيرة، حتى الرجل الذي كانت تخشى سلطانه وتهواه كان أطوع لها من بنانها.

وراحت تبالغ في مطالبها، لا تقف عند حد ولا تنتهي إلى غاية. وحين جاء الصيف رغبت أن يسافرا إلى الإسكندرية فلم يجد في نفسه قوة على العصيان وهو يعلم أن أكلاف الاصطياف هناك فوق ما يتحمل مرتبه الضئيل. . وقضيا في المصيف شهرين استمتعت فيهما زوجه بكل ما اشتهت من حرية وانطلاق، وكان لهما في نفسه لذع ومرارة. وأخذ الحب الذي كانت تحسه لزوجها من قبل يتلاشى رويداً رويداً؛ لأنها بدأت تعنى بأشياء أخرى؛ وصار همها من دنياها ثوباً جديداً تختال به على صويحباتها،

أو ليلة ساهرة فيها متاع القلب والنظر، أو سفرة إلى هنا أو هناك تجتلي من مشاهدها أنساً وبهجة.

ولم يكن يضن عليها بشيء. . ونسيت تدبير البيت وشئون الزوج؛ فكانت تقضي نهارها زائرة أو طائفة بالبيوت التجارية والحدائق ودور اللهو، وأخذت تنفلت من قيود المرأة المتزوجة قليلاً قليلاً، حتى اطمأنت إلى حريتها كاملة في الغدو والرواح، وفي السهر أيضاً؛ وتاقت لأن تبسط إرادتها إلى ما وراء جدران البيت مؤمنة بجمالها وسلطانها على القلوب!. . وألف شوكت أن يعود إلى البيت في النهار وأول الليل فلا يجد هناك غير الخادم تخلع عنه ملابسه وتهيئ له الطعام، ولم يكن ليسوءه ذلك كثيراً، فحسبه من الزوج الحبيبة أن تكون سعيدة هانئة، وأن يستيقظ في الصباح على نغمات من صوتها الندي الرقيق، وأن يمسي ووجهها آخر ما يراه من الدنيا اليقظة. ولكن الكرة ما زالت تتدحرج ويخاف أن تبعد عن منال يمينه. . !

وعاد ليلة متعباً مكدوداً يلتمس الراحة في البيت، ودق الباب فلم يجب أحد، وعاود الدق فلم يسمع غير الصدى

يرن ثم يتلاشى في مثل ضحكة ساخرة من فم امرأة. . . ترى أين ذهبت الخادم، وأين زوجه الآن؟ لقد تعودت الغياب عن البيت كأنما لا يعنيها منه إلا أن تأكل وتنام! أليس له عليها مثل حق الأزواج؛ فما لها لا تدرك عليها واجباً ولا تعترف له بحق؟. . وأخذ يذرع الطريق غادياً رائحاً ويداه خلفه ورأسه إلى الأرض، يمد بصره بين حين وحين يرقب الطريق. . ورأى زوجه مقبلة في سرب من رفيقاتها تهتز أعطافهن في فتنة مغرية، ويجاهرن بالحديث عابثات ضاحكات. ورأته زوجه فقالت: (أنت هنا؟) ولم تزد، وسبقته تفتح الباب وأنصرف صواحبها. ولما اطمأن بهما المكان قال لها:

ـ (لقد ضايقني الانتظار يا إلهام، أين الخادم؟). قالت:
ـ (الخادم؟ لقد سافرت لترى أباها. ألم أنبئك؟)

قال وقد رسم الاستياء خطين على جبينه:

ـ (وهلا قدرت أن أعود مبكراً فتكوني في انتظاري ولا تتركيني بالباب؟!)

ومالت عليه فطوقته بذراعها ويدها تعبث بشعره وعيناها تبرقان، وقالت تداعبه في لين وتكسر: (ليتك لا تغضب يا شوكت، أنا أحبك!) ثم كانت قبلة نسى معها الغضب والعتاب. . .

وتتابعت أيامها من بعد بين غضب ورضى، وأدركت إلهام أن زوجها يحاول أن يعود رجلاً وأن يبسط عليها سلطانه، ولكن بعد أن عرفت من أين تناله وكيف تسلبه إرادته. . . ومر عام، وصار شوكت أباً. هذا ولده عادل.

ودق الجرس في فناء المدرسة، فأنفلت الغلام من بين يدي أبيه كما فرت سعادته من قبل. . !

أين هي الآن؟ إنه مازال يحبها أعنف الحب وأرقه، ولكنه قد فارقها إلى الأبد! وآلمته الذكرى، فأخرج علبة من جيبه فأشعل سيجارة، واعتمد بذراعه على حافة المقعد، وأسند برأسه إلى راحته، وزفر زفرة، وتلوت ثعابين الدخان صاعدة، وراح يتابع الذكرى الأليمة:

لقد كافأته زوجه على حبه ووفاءه وطاعته ـ بالسخر والتمرد والعصيان! ليته استطاع أن يكون معها أصلب قناة

وأغلب إرادة، فلعلّه كان أحب إليها صلباً غلاباً صاحب إرادة وعنفوان. . . !

إنه كان يحبها حباً بعيد الأمل، ليس له حدود تحصره في دائرة الممكن، ولا حرية تطلقه وراء المستحيل؛ فلما ظفر بها ضل الطريق إلى السعادة، وراح يلتمس قلبها فهوى على قدميها. . !

وحين أراد أن يهيئ لها سعادة الرضى في جواره لم يعرف كيف يجعل إرادته تسبق إرادتها فيما تشتهي فيمنحها ما تشاء قبل أن تدعوه إليه آمرة مطاعة. . . !

ولو إن الحجاب بينهما فيما بين الخطبة والزفاف لم يكن في حراسة التقاليد، لتفاهم قلباهما على الود الكريم، ووضع الأساس لحيات الغد على غير جرف هار من الوهم والخيال. . . !

لم يكن يومئذ يدري أن المرأة تعشق الرجل المتسلط الذي يغلبها ويفوقها، بقدر ما تحتقر الرجل الذي يترامى على قدميها في ضعف وهوان، ولو كان ضعف المحب وهوان العاشق. . . !

لقد عاشرته خمس سنين كانت معه في البيت كضيف على ميعاد، وكان حظ صواحبها منها أكثر من حظه! وربما قضى الساعات في البيت وحيداً، وهي هناك تنتقل زائرة من بيت إلى بيت، فلم تكن تعرف دارها إلا يوماً واحداً في الأسبوع، هو يوم الاستقبال. . . ولقد كان في البيت مرة وسمع بأذنيه أي الشئون يتحدث فيها النساء: حديث الأزواج، وشح الأزواج، وغفلة الأزواج، ثم الأزياء والملاهي ولا شيء غير ذلك!. . بل لعله رأى بعينيه ماذا يصنعن يوم الاستقبال. لقد نقم على كثيرات من صاحبات زوجه، وعاب عليهن سوء الأدب وقلة الاحتشام، ولكنه لم يجرؤ حتى فيما بينه وبين نفسه أن يسيء الظن بأخلاق زوجه، ولم يجرؤ أن يحدثها عما رأى وسمع؛ خشية أن تلومه على استراق الحديث والنظر. .!. . آه لو كان يدري يومئذ أنها واحدة من هؤلاء حين تكون بعيدة عنه، فلعله كان حينئذ يستطيع أن يردها إلى الصواب!

ـ ٣ ـ

وطالت غفلته عن حديث الناس بسلوك زوجه، حتى حين مرض بالإسكندرية صيف عام واشتدت به العلة، وأمره الطبيب أن يعود إلى بلده، فأبت زوجه أن تعود قبل أن ينصرم الصيف، وتركته يخلفها وحدها هناك على الشاطئ في حراسة الشيطان، تداعب أمواجاً في البحر وأمواجاً في البر، لقد كان لها يومئذ رغبات نسيت في سبيلها وفاء الزوجة وبر الأم، فلم تعد إلا بعد شهر!

لم تهنأ إلهام بالحياة في بلد زوجها على ما فيه من جمال وفتنة، وحالت بعد عودتها امرأة أخرى؛ فلم تعد تهتم باسترضاء زوجها، تمحو غضبه بابتسامة الخداع وبهرج الكلم، ومزقت القناع عن وجه عابس، وكشفت صدرها عن ألم وضيق بحياتها في كنف الزوج الحبيب، وراح شوكت يستميلها فلا تزداد إلا نفوراً، ويتحبب إليها فلا تبدي غير البغض والكبرياء. . . وآلمه ما تغير من أخلاقها، وراح يحاسب نفسه على ما قد يكون أساء به إليها، ويحصي ما قصر في حقها وما اقترف، فلا يبدو له إلا

صفحات كلها حب ووفاء وتضحية. وأخفق فيما سعى إليه ولكنه لم ييأس.

وترامت إليه الأخبار بما يتحدث الناس من شأنها؛ وكان آخر من عرف. . . يا للهول! وأفاق من وهم الحب. لقد مد لها أسباب الغواية وتركها تتدحرج حتى استقرت في أعماق الهاوية وجذبته معها!

واستعاد رجولته، ولكن بعد أن فقد من يأتمر بأمره، وفارقها في صمت، عيوفاً أبياً، ولكنه خلف قلبه هناك. . تحت وسادتها وبين الحشايا!

وكان له ما أراد، ونقل من البلد الذي دفن فيه الشباب والحب والأمل، ينشد العزاء والسلوان بعيداً بعيداً؛ وقد أقسم ألا يكون له من بعدها زوج.

وها هو ذا يعود بعد سنوات ليأخذ ولده يعيش في حضانته، بعيداً عن عار الخطيئة ـ عن المرأة التي كرهت أن يكون ولدها معها فيعلن للأصدقاء بوجوده أنها أم. . . !

وصلصل الجرس وما يزال شوكت غريقاً يجاهد موجات الذكرى الأليمة في يأس؛ يأس المحب الوفي جُوزِيَ بحبه ووفائه غدراً وخيانة!

وحياه زميله الأستاذ مختار وهو يصيح: (أهلاً، شوكت، متى حضرت؟)

وهز يده بقوة، وربت على كتفه بحنان ثم أردف:

ـ (إن صديقنا (أحمد) لموفق، فقد كان يذكرك اليوم ويتمنى أن تحضر زفافه، وقد حضرت.)

قال شوكت: (زفافه؟ وماذا تراني أصنع له في زفافه؟)

ودهش مختار أن يتحدث شوكت كذلك وأجابه: (لا أحسبك نسيت ما كان بينكما من ود؛ أفليسَ من حقه عليك أن تهنئه أن ظفر بالفتاة التي يهواها، وأنك لتعرف أين كان أمله!).

وابتسم شوكت في ألم، وقطّب جبينه، واسترجع كل ماضيه الأليم في لمحة، وقال لصديقه ساخراً: (وهل تراه ظفر بشيء يستحق التهنئة، أم تراني أعزيه. . . !)

وتولى عن صاحبه وهو ممسك بيد ولده، والأرض تجاذبه إلى الخلف ـ إلى حيث يرى المرأة التي أحبها فخانته.

ولكنه عرف كيف يكون رجلاً، وكيف يقمع في صدره ذلك الحب الذليل الذي نزل به إلى الهوان والعار. ومضى في طريقه إلى البلد الثاني وكأن ما كان يدوس بقدميه قلبه الدامي فيحس وخزاً أليما فوق ما تخزه الذكرى وتؤلمه.

ومضت الأيام تسدل بينه وبين الماضي حجاب النسيان، وهو يغالب هواه ويصارع نفسه، حتى برأ من دائه.

وأخذت ذكريات الماضي تتضاءل في رأسه حتى أوشكت أن تتلاشى، وانقشعت عن عينيه غشاوة العاطفة التي كانت تغلبه على عقله وتزين له أن يبيع بالحب كرامة الرجل.

وانقضت سنوات ثلاث، ثم رأى نفسه وجها لوجه أمام المرأة التي كان يحبها أرق الحب فعاد يبغضها أعنف البغض، ويبغض من أجلها النساء جميعاً.

لقد أخفقت فيما سعت إليه، فلم تظفر بالسعادة التي انطلقت وراء أوهامها وحطمت في سبيلها عش الزوجية،

وحالت الثمرة التي كانت تشتهي حلاوتها مُرة كريهة المذاق حين عرفت منزلتها الحقيقية من نفوس المعجبين بها والمزدلفين إليها من الرجال، لقد انفضوا عنها جميعاً بعد أن ملوها، وراح كل منهم يلتمس لحظات سعيدة في غرام جديد أبي، يذوق فيه سعادة الظفر بالمغيب المجهول. . وتنكرت لها الحياة فعادت إلى الماضي تستلهمه، فإذا هي ما تزال تحب شوكت. . . وذكرت في النهاية الرجل الذي كان يحبها، والذي كان يبيع من أجلها كل شيء، فجاءت تسعى إليه معترفة تائبة. هيهات! لقد أضلها السراب طويلاً، فلما همت أن تعود إلى المناخ كان الركب قد تحرك، فلم تدرك غير الغبار يقذي عينيها وتتكاءدها عقبات الطريق!

وأغلق الرجل دونها بابه، ووقفت بينه وبينها الذكريات المؤلمة عن ماضيها وماضيه. لم تؤثر فيه دموع الندم، ولم يعطفه عليها ما ناشدته الحب القديم، فقد علمته من قبل كيف يكون بليد العاطفة، فبقي معها بليد العاطفة، وعلمته

ألا يؤمن بالحب، فأثبت لها أنه لا يؤمن بالحب، وعلمته ألا يثق بوعود امرأة، فأكد لها أنه أبداً لن يثق بوعود امرأة.

وحين عادت المسكينة امرأة ذات قلب. . . . عاد المسكين رجلاً بلا قلب!.

كفارة. . .!!

. . . نهار من أيام الخريف، بدأ ثقيلاً طويلا قاتماً، ومضى عاصفاً ، وأقبل الليل فسال الظلام على جوانب الكون كثيفًا مطبقًا، الريح تعصف عنيفة باردة والمساء يغشاها سَحاب أسحم ومطر سخي، أوراق الشجر تسَّاقط مستسلمة، وسعف النخيل يتحدى العاصفة، والعاصفة تداعبه وتعبث به، فتشيع في أطراف الليل حفيفًا موحشًا يشبه أن يكون أنين أرواح هائمة في أودية العذاب، أصوات الذئاب يتجاوب بها الصدى، والكلاب ترد عليها بنباح قوي مختلط يتصل حيناً طويلا، ثم ينقطع لحظات، ثم يعود فيتصل ويختلط، على أن هذه الأصوات المختلطة المبهمة كانت تنجلي أحيانا عن نداء أو غناء يردده أحد الفلاحين في حقل بعيد.

سكون موحش يثير القلق، ويحمل على الشك، ويدفع الرهبة إلى النفوس دفعا. . . وقف بيومي قليلا ثم تردد في استئناف السرى. . . لقد جسم له الوهم والخوف من الظلام أعمدة جاثمة تعترض الطريق كأنها المردة السود،

وكان بيومي يقف أحياناً يتطاول بعنقه ويرهف سمعه ويضرب بعينيه في ميم الظلام كأنما يبحث عن قبس أو هدى: إنه يحمل في جيبه مالاً كثيراً وهو يوجس خيفة، وهو فوق هذا وذاك يحس شيئاً من الجوع والتعب وبين بلده ساعةً وبعض ساعة فلماذا لا يبيت بلدة (قلوصنا) وهي على بضع دقائق فقط ريثما يسفر الصبح؟ إن له صديقاً قديماً هو شيخ الخفراء وأكبر الظن أنه سيطعمه من جوع ويؤمنه من خوف ويهيئ له من أمره راحة وأمناً. . . ومن أحق بهذا من شيخ الخفراء؟! ولكن بيومي لا يستريح إلى هذا الحل ويتردد طويلاً قبل أن يبيت فيه لأنه يعلم عن شيخ الخفراء ما ليس لنا به علم، إنه يخشى أن يجيئه الهلاك من مأمنه، فلشيخ الخفراء حائف في ثبت الإجرام، وأكبر اليقين أنه لا يتورع من أن يضيف إليها فصولاً جديدة. ولكن أتراه يعتدي على ضيف ينزل بداره ويلجأ إليه؟ ربما! وهو فوق ذلك صديقه! ولنترك بيومي يضطرب بين الشك واليقين ويتصارع في نفسه الإحجام والإقدام فلعل الله أن يجعل له فرجاً من الضيق، ومخرجاً من الحيرة، ومن الخوف أمناً وهدى. . .

أما عبد الهادي شيخ الخفراء فهو رجل مديد القامة، شديد البأس، قوي مفتول، له وجه تشيع في قسماته الصرامة، وعينان ينبعث منهما التحدي والشر، كان فيما فرط من أيامه يقطع الطرق ويهدد السارين ويسلب الناس، ولم يجد في القتل حرجاً ولا في السلب جناحاً، بل إنه ليعدها من مفاخره.

وعبد الهادي يثبت نظرية لمبروزو في المجرمين فقد كان من القرويين الذين تغلب فيهم سيطرة الإجرام، ويتحكم في رجولتهم شر أسود في لون هذا الليل العاصف المدلهم، لم يكن يردعه قانون ولا دين، ولا يمنعه عقل ولا عاطفة، عُين شيخاً للخفراء فزاد عبثه وما زال يصل أسبابه بأصدقائه القدماء من اللصوص والقتلة، يغريهم بالناس ويدلهم على مواطن الصيد ويمهد لهم سبل الإفلات. . .

واتصلت جرائمه واضطرب الأمن في بلده والبلاد القريبة، والناس يعلمون أن لعبد الهادي يداً في كل شيء، لكنهم صامتون لا يهمسون، لأن لعبد الهادي عيناً ترقب الثرثار، ولأن الناس يدفعون هذا الصمت ثمناً لأرواحهم

وأموالهم إشفاقاً من انتقامه وهم يؤدون إليه ما يفرض عليهم صاغرين إذا اختفت سوائمهم فترد إليهم من حيث يعلمون ولا يعلمون.

أما بيومي فقد قلب الأمر غير مرة وانتهت المعركة في نفسه أخيراً. . . وتغلبت على وساوسه نوازع الثقة في الله ودوافع الخوف من السرى في الظلام والبرد، وتعاونت هذه الأسباب كلها على أن تسوقه إلى بيت عبد الهادي ضيفاً. .

طَرق بيومي باب عبد الهادي في رفق ففتح له وأحسن استقباله وقدم إليه طعاماً وأعقبه بالشاي مثنى وثلاث، ثم سَمر معه إلى وهن من الليل وتركه ليجول في البلاد جولة بعد أن أوصى به ابنه سالماً أن يهيئ له فراشه في المندرة، سهر بيومي وسالم ما طاب لهما، وسمرا ما تشقق بينهما الحديث وشربا الشاي غير مرة، ودخنا كثيراً ثم ثقلت أجفانهما وفترت أعضاؤهما ولحقهما الخمول، وأحسا الحاجة إلى الراحة فقام كل منهما إلى فراشه، ونام بيومي بعد أن قرأ ما تيسر من القران وتوكل على الله وأسلم إليه وجهه.

وعاد عبد الهادي بعد ما انتصف الليل وقد طوعت له نفسه أمراً، وأحسب أن هذا الأمر قد اختصم في نفسه طويلاً مع الواجب، وأحسب أن بقايا المروءة المتناثرة في زوايا قلبه قد تجمعت فانطلقت تقرع أذنيه في عنف واتصال. . . ! ربما لم يسمع، وأكبر الظن انه سمع، ولكنه سخر من ضميره وضحك من هذا الخور الذي لم يألفه في أعصابه، اتجه إلى الباب ففتحه ودار ببصره في الظلام والنجوم، ثم أرسل ضحكة مكبوتة كأنها في فحيح أفعى هائلة ثم انقلب إلى الداخل ثانية وأجمع رأيه قبل أن يبدله ما يرده إلى النكول أو التردد، حمل الذئب (بلطته) وتسلل إلى المندرة فدخل ثم وقف وأنصت وتقدم إلى النائم فناوله ضربات متصلة قطعت ما بينه وبين العالم من أسباب الحياة.

اضطرب القتيل قليلاً ثم ساد السكون مرة أخرى . . ! وتحسس عبد الهادي جيب القتيل فلم يجد معه من المال قليلاً ولا كثيراً.

عرته الدهشة. . ! أين اختفى المال الذي كان مع بيومي. ؟ لاشك أنه حفظه في مكان ما في نفس المنظرة. . .

ولم يتردد عبد الهادي في أن يخفي أثر الجريمة أولاً. . . فلفَّ الجثة وحزمها ثم حملها مطمئنا آمناً، لأن الشك ينحسر عنه وإن فاض حول جميع الناس . شيخ الخفراء طبعًا. . ! ! وللمرة الأولى أحس عبد الهادي رجفة تأخذ أعصابه وهماً مبهماً جائشاً يستبد بروحه ويضيق عليه أنفاسه، وثورة صاخبة تصم أذنيه وتدور برأسه. . . لقد أخذه الندم! وأفاق ضميره ولكن متى. . . ! ؟ سمع عبد الهادي وقع حوافر الخيل تخب مسرعة وتناديه أن يقف. . إنهم العسس (الدورية)! غامت الدنيا في عينيه وملكه اليأس وأسقط في يده ولم يملك إلا أن يتطمن للقضاء الأعلى ويعنو لإرادة الله التي ترى كل شيء وتدبر كل شيء. . . ! قاتل! وشيخ خفراء! ! جريمة ذات شعبتين، قاده الجند إلى منزله أولاً وعلى كتفه ضحيته. . وحسر الجند اللفائف وتفرسوا في وجه القتيل وصرخ عبد الهادي وخر صعقا. . !

لقد قتل ابنه خطأ. . . ! واستيقظ بيومي فزعا فأدرك كل شيء، وأعلن أنه كان ينوي أن يبيت في المندرة لولا أن سالما رأى أنها رطبة لا تلائم الضيف فنقله إلى غرفة أخرى وأخذ مكانه في المندرة. !

وكان يوم الحكم فشرقت القاعة بالوفود ووقف القاتل في القفص يبكي في إطراق طويل وصمت صاخب ومرارة ملتهبة وحسرة لجوج، وساد السكون فجأة لما ارتفع صوت القاضي يدوي في القاعة قوياً جلياً هادئاً (أشغال شاقة مؤبدة).

وقاد الجند الرجل المحطم إلى قاعة النيابة في أعلى المحكمة وهو لا يزال ينشج كالأطفال. . . وغافل الرجل المحطم الحراس وألقى بنفسه من أعلى المحكمة فهَوَى خليطاً هامداً من اللحم والعظم. . .

الطينة. . .

أحببتها حتى غلب علي فيها الذهول، ولماذا أحببتها؟ أغريب شأني إذا لم تر عيناي إلا كائنًا واحدًا، ولم تحمل نفسي إلا فكرة واحدة، ولم ينطوي قلبي إلا على أمنية واحدة، ولم يتسع فمي إلا لاسم واحد؟ ذلك الاسم الذي يصعد من فمي تكراراً. من أعماق روحي مرارًا، كأنه ينبوع متفجر. أقوله وأعيد فيه القول ثانية وثالثة كأنه صلاة أذكرها وأرددها.

لن أقص عليكم ما غشيني في هذا الحب، ومتى كان للحب حكايات متعددة، ورواياته في كل زمان ومكان واحدة. قد رأيتها وأحببتها، وهذا كل ما في روايتي.

قضيت زمنًا ـ ويا حبذا ذلك الزمن ـ يغمرني عطفها، وتحوطني بذراعيها، وتشبعني نظراتها، ورداؤها وكلماتها.

بل فنيت فيها حتى غلب علي الذهول فأصبحت لا أدري: أذلك الليل أو النهار يحيط بي؟ وأنا في قيد الحياة أو في سجل الأموات؟ وهل أنا على أرض غير الأرض؟

والآن ماتت، فكيف سطا عليها الموت؟ لا أدري. . لا أعلم، دخلت علي أنسية ليلة من ليالي الشتاء مبللة الأثواب فنامت، فاستيقظت وهي ترسل السعال ملحة فلزمت سريرها مضطرة.

وبعد ذلك لا أعلم.

الأطباء حشدناهم من كل صوب. فكانوا يقدمون ويكتبون ويذهبون. والعلاجات تنهال عليها وإزاءها امرأة ترعاها. يدها حارة الملمس. وجبينها متوقد. ونضرتها ساطعة، لكنها كئيبة.

أكلمها فتخاطبني، ولكن ماذا قلنا؟ لا أعلم. . قد نسيت كل شيء. . كل شيء. إنها قضت ولا أزال أذكر تنهدتها الخفيفة وأنّتها الضعيفة.

وقد صاح من حولها (آه) ففهمت أن الأمر انقضى.

لم أعد أعلم شيئا. .

لمحت كاهنًا يخاطبني بهذه الكلمة: أمعشوقتك؟ فخيل إليَّ أنه ينال منها، ـ وهو بعد موتها ـ يجب عليه ألا يعرف شيئًا من هذا فنفيته من دارها وطلبت غيره، فخف إلى كاهن طيب السريرة.

رقيق النفس، حدثني عنها فغلب علي البكاء.

أمسيت لا أعرف شيئًا، ولكني أذكر الأكفان والناووس الذي ووريت فيه إلى الأبد.

نزلت في التراب، وجاء معها بعض صواحبها، وأخيراً انطلقت وطفت في السبل شارداً، وعدت أدراجي، وفي الغد الباكر حملت نفسي على الرحيل.

وبالأمس دخلت باريس. . .

ومذ وقع ناظري على غرفتي. . غرفتنا وسريرنا ومتاعنا. وكل ما يخلفه الميت وراءه، شعرت بأن أنفاسي تضيق، وبأن كآبة تتمدد في أنحاء نفسي فتزيد صدري حرجا. وتبعثني على إلقاء نفسي من النافذة. . . لم استطع البقاء طويلا في هذه الغرفة التي تتراءى لي فيها محبوبتي، فأسرعت عازما على الخروج فوقع ناظري على

تلك المرآة المصقولة التي كانت تقف إزاءها ناظرة إلى وجهها وجسدها كل يوم، تتقن زينتها تجاه هذه المرآة التي كان رسمها ينعكس فيها، ولا يزال يتراءى على صفحتها فأدركتني رعشة عميقة، وعيني خلال ذلك لا تبرح المرآة العميقة الفارغة التي احتوتها ـ قبل اليوم ـ فخيل إلي أنني أحب هذه المرآة فلمستها فإذا هي باردة. . .

ولكن الذكرى، الذكرى!! المرآة الملتهبة المعذبة.

إلا أنهم سعداء، من تشبه قلوبهم هذه المرآة ترتسم عليها الضلال ثم تمحى. وتنسى كل ما ارتسم عليها وارتسم فيها.

برحت مكاني وأنا غير مختار. ولا أعلم أية وجهة أسلك!؟ فدخلتُ المقبرة فألفيت ضريحها المنفرد يشرف عليه صليب رخامي نُقش تحته

(إنها أحبت وكانت محبوبة ثم ماتت. . .)

إنها تحت هذا الضريح قد عبث فيها الفساد! مكثت هنالك طويلا خاشع الرأس حتى أتى المساء، ولكن خطرة غريبة صعدت من نفسي هي خطرة عاشق يائس تحدثني

وترغمني على قضاء الليل بجانبها ذاكراً باكياً، ولكن الناس سينظرون إلي وسيطردوني فما عسى أصنع؟ نهضت وأبديت لمن يراني إنني ضال بين القبور، فسرت وأمعنت في السير، ولكن ما أضأل مدينة الموتى إزاء غيرها من مدن أهل الحياة، والموتى ينيف عددهم على عدد الأحياء.

يتخذ القصور الشامخة والدور الباسقة والسبل الفسيحة أبناء النور، وشاربوا الينابيع، وراشفوا ابنة الأعناب، وآكلو سنابل الحقول، أما الموتى الذين تحدروا إلى أعماق الثرى وما زالوا ينحدرون. أولئك لا ينالون شيئًا. . . رقعة من الثرى تضمهم والنسيان يطوي أسماءهم ووداعاً.

في زاوية من زوايا المقبرة الآهلة بسكانها وقع ناظري على المقبرة العتيقة التي اختلط رفات أصحابها بالتراب، و أتى على صلبانهم الهلاك. وغداً سيبدل الأحياء بالنازلين القدماء، نازلين محدثين.

كان يغشى تلك المقبرة ورود منتشرة، وأوراق سوداء، كأنها حديقة كئيبة ساخة تغذيها لحوم الموتى.

آويت إلى جذع شجرة تواريت به عن الناس. ولبثت مرتقبا قابضاً على الجذع كما يقبض الغريق على بقية من بقايا زورقه المحطم حتى مد الظلام رواقه، فغادرت مكاني وطفقت أطوف متمهلا بين اللحود.

ضللت كثيراً وأنا أتلمس قبرها. فكنت أسرى باسطاً يدي. وفاتحاً عيني، وواثباً بين القبور على غير هدى، فكم قبور لمحت، وكم رسوم وقفت عليها كأعمى يود أن يهتدي إلى سبيله فلمست حجارة وصلباناً. وأكاليل ذوت أزاهيرها، وأكاليل من زجاج. وتلوت أسماء كثيرة بيدي ولكنني لم أجدها.

لا قمر في السماء يزيح هذه الظلمة الداجية. ! وياله من ليل بعث في نفسي الهول. أغشى الطريق تغمر جانبيها القبور. القبور عن يميني والقبور عن شمالي. والقبور أمامي وورائي. أعياني السير فاستويت على ضريح فسمعت خفقان قلبي وسمعت شيئا غير خفقانه.

ماذا أسمع؟ أهذه وساوس تعيث في رأسي؟! وهذه أسماء تتصاعد من الأرض الطافحة بأشلاء بني الإنسان؟

كم مضى علي من الزمن وأنا لابث في مكاني؟ لا أعلم: ولكن الخوف قابض على قلبي بكلتا يديه لا يبرحه. همت باكيا أصيح، وأوشكت أن اقضي نحبي.

فجأة شعرت بأن لوح الضريح الذي اتخذته مقعداً لي بدأ يتحرك كأن شيئا تحته يزيحه، فبعدت عنه مذعوراً وإذا باللوح يمشي. . . وصاحبه ينتصب بهيكله العظمي. أزاح بظهره المقوس لوح الضريح فألقاه على الأرض.

فتلوت على اللوح برغم حلوكة الليل: (هاهنا يرقد (جاك أوليفان) المتوفى في الخمسين من عمره. كان باراً بأبويه: وكان صالحا شريفاً. ومات تحت كنف الله).

رأيت الميت يحدق في هذه الكلمات ثم جاء بحجر مسنون يمحوها حتى لم يبق لها من أثر. ثم أخذ ينظر مكانها وتناول عظمة من عظامه وسطّر عليها بأحرف بارزة (هاهنا يرقد جاك أوليفان المتوفى في الخمسين من عمره. قد عجل موت والديه لعقوقه، وأضنى امرأته. وعذب أولاده وخدع جيرانه وسرق ما استطاع ومات فقيراً).

أتم الميت تسطيرها وظل يتأمل فيها، وغادرت مكاني فإذا القبور جميعها متفتحة، وسكانها جميعا بعثوا من مراقدهم، ومحوا الصفات الكاذبة التي سطرها أهلوهم على لوحات قبورهم، ونقشوا مكانها حقائقهم المجردة، فوجدت أن جميع هؤلاء الآباء الصالحين والزوجات الأمينات، والأبناء الطاهرين، والغواني العفيفات، وأن هؤلاء التجار المستقيمين، منهم العاق والبغيض، واللئيم والمرائي، والكاذب والحاسد والنمام، ومنهم السارق والخادع، والمرتكب كثيرا من الآثام. رأيتهم جميعا منكبين على منازلهم يسطرون حقيقة أنفسهم التي يجهلها أو يكاد يجعلها أبناء الحياة.

شعرت ـ إذ ذاك ـ بأن محبوبتي خطبها خطبهم، فجعلت إليها نافضاً عني الخوف، ومن حولي القبور المفتوحة.

والجثث المنشورة والهياكل المنتصبة. عرفتها إذ لمحتها، ولم أتوسم وجهها المتصبّب عرقًا. وعرفت القبر الذي كانت هذه الجملة مسطورة عليه (إنها أحبت. وكانت محبوبة ثم ماتت).

تلوت هذه الجملة الثانية (خرجت يوما لتخون حبيبها فأصابها برد أودى بحياتها).

ويبدو لي أنهم عثروا بي راقداً عند شروق الشمس على أحد القبور.

ذهبت إليه، وسألته أن يعطيها الكتاب الذي وعدها به فوقف هنيهة يفكر: أين وضعه؟... ثم تمتم:

لعله في حجرة المكتب!

وتقدمها إلى الحجرة، فدخلاها. إلا أنها تنبهت إلى شأن غير عاديّ بدر منه. لقد أقفل الباب بالمفتاح!... فتسارعت دقات قلبها، واختلست إليه النظر، فوجدته قد اتجه إلى الخزانة، واندفع يقلب محتوياتها...

كيف اجترأ أن يقفل الباب بالمفتاح وهي معه؟!. من يظنها؟! ورمته بنظرة حادة...

وأبصرت خصلة من شعره الذهبي قد تهدلت على جبهته... يا لله! لم تره على هذه الفتنة قبل الآن... قامة مبسوطة، ومنكبان عريضان، ووجه صبيح عليه طابع الرجولة الحق!

لم تره قبلُ في هذه الفتنة، على أنها نشأت وإياه في منزل واحد، وكان يكبرها بعشر سنين، فهو ينظر دائماً إليها نظرات الأخ الكبير إلى أخته الصغرى. . .

ووقع بصرها على خيالها في المرآة، فتذكرت معابثته إياها إذ كان يلقبها أحياناً بالضفدع، لقصر قامتها!

ورفعت عينيها إليه ثانية:

ها قد حبسها معه في حجرة واحدة، هذا الفتى المبسوط القامة، العريض المنكبين. . .!

إنه يتظاهر بالبحث عن كتاب، ويطيل التقليب فيما بين يديه، وقد يكون الكتاب المقصود على قيد أنملة منه!

ما أجهله بعقول الفتيات! . . . إنه ما برح يتوهمها طفلةً، على حين أنها استقبلت منذ أيام عامها السادس عشر!

ولكن أية مفاجأة تلك التي يفكر فيها؟

أهجومٌ مصحوب بقبلة حرّى؟

إن يدها على استعداد لدفع هذا الهجوم!

صفعة قوية تثيب إليه رشده. . .

وجعلت ترنو إليه، وهو منهمك يبحث عن الكتاب، وكان مرتدياً منامةً حريرية تتموج على جوانب جسمه الرياضي البديع، الذي يحسده عليه أجمل كواكب (السينما). . .

وأطالت النظر إلى ساعديه القويين، فاختلج جسمها بهزة كهربية. . .

لقد أنبها أخيراً لأمور تتعلق بسلوكها. . . أتكون الغيرة قد بدأت تتسلل إلى قلبه؟!

هو قليل التحدث معها، ولكنه كثير التفكير والسهوم. وهل تنسى يوم سارقها النظر، فتضرج وجهها؛ فغضب لافتضاح أمره، ونهرها بشدة؟!

ما أشد كبرياءه! ولكنها ستهزم اليوم هذه الكبرياء هزيمة ساحقة. . .

سيجثو تحت قدميها، ويقول لها: (كم أحبك. . . كم أحبك يا عصفورتي الصغيرة! . . . فتجيبه، وهي مهتاجة: (دعني أخرج! . . افتح لي الباب. . .) ثم

يمسك بيديها، ويغمرها بقبلاته وهو يكرر: (ارحميني! . . ارحميني! . . .)

وأخيراً رفع رأسه عن كومة الكتب، ثم التفت إليها، فرآها تبتسم له، فأجابها بابتسامة سانحة!

تلك هي العاصفة توشك أن تهب، فلتستعد لها . . .

إنها لم تره على هذه الوسامة قط . . .

أتراه يفكر في حملها بين ذراعيه، ثم يقفز بها من النافذة إلى الحديقة، ثم يظل يعدو بها. قد يعقد الذعر لسانها، فلا تستغيث ولا تتحرك . . . فلا يفتأ يجري ويجري . . . فإذا ما امتلكت نفسها، واستعادت شجاعتها، وأرادت أن تصيح، أسكتها بقبلة طويلة!

لم يعد يبحث عن الكتاب، إنه في تفكير شارد مضطرب. يُعد برنامج الهجوم . . . أفلا تتقدم إليه من فورها، وتباغته بقولها:

لقد كشفت عن خططك . . . سأفسدها عليك . . . افتح الباب، ودعني أخرج . . .)؟!

والتفت إليها في هذه اللحظة، ثم رأته يدنو منها . . .

يا لله! ما أشد خفقان قلبها! . إنها تسبل جفنيها . . . !

وسمعته يقول:

هذا هو الكتاب.

فرفعت إليه بصرها، فإذا به يمد إليها يده بالكتاب الذي كان وعدها به. وقد زوى ما بين حاجبيه . . . فأخذته منه في صمت!

وأبصرته يفتح الباب بالمفتاح، وينفذ منه، وهو يصيح بالخادم قائلاً:

ألم آمرك غير مرة بإصلاح هذا الباب؟ إن المرء ليضطر لاستعمال المفتاح كلما دخل أو خرج تفاديا من هذا التيار الشديد! . . . ثم اختفى عجلاً.

ولبثت الفتاة طويلاً تحدق في الجهة التي اختفى منها . ثم وقع بصرها عفواً على الكتاب في يدها فاندفعت إلى النافذة، وقذفت به!

ثم ارتمت على المتكإ، وانكبت على منديلها تمزقه بأسنانها . . .

عرفته في الثامنة عشرة، طويل القامة في غير إفراط، نحيل الجسم في غير هزال، مهيب الطلعة في غير تأنق، حلو الحديث في غير تكلف، ولست أذكر وقد مضى على تعارفنا نحو ستة أعوام ما الذي جذبني إليه حينما رأيته لأول مرة حتى لقد امتزجت روحي بروحه، أهو هدوءه ورزانته أم نشاطه وهيبته؟ وكل ما أتذكره الآن هو أني رأيته فأحببته ولشد ما أبهج نفسي أن رأيته يحس نحوي ما أحس نحوه فما هي إلا أيام حتى توثقت عرى المودة بيننا واستحكم الوفاق بين قلبينا وصار كلانا يأنس بصاحبه ويهش للقائه ويحرص على رضائه. ولما عاشرته وتبينت خلاله أعجبني منه أدبه الجم ووقاره العاقل وقلبه الرحيم وأكبرت منه نظراته الهادئة ونفسه المتوثبة وعواطفه الثائرة وشبابه المرح وروحه الجذابة.

وتبينت فيه شاعراً يقدس الجمال ويعشق الطبيعة في خيال خصب وذهن متوقد وحس دقيق كما تبينت فيه على حداثته فيلسوفا بعيد النظر دقيق الملاحظة حلو الفكاهة

عذب الروح ورأيته مشغوفا بالحياة مقبلا عليها قانعًا بحظه منهما راضيًا عن نفسه غير ساخط على أحد. ولقد جعلني منذ أن تعارفنا موضع سره يحدثني في غير تحفظ ويجد عزاء طيبا في أن يبثني لواعج نفسه وخطرات حسه كما يجد هناءً سائغا في أن أشاطره مسراته وأسباب سعادته.

وكان حديثه تارة حزينًا يستدر الدموع وتارة بهيجًا يملأ جوانب النفس سروراً وغبطة وكان يقص عليَّ مشاهداته في الحياة غير أنه كان يشفعها بآرائه أو يمزجها بخواطره فيكسبها بذلك قوة تحرك القلب وتستثير العواطف.

وكنت أحرص على أحاديثه إذ أرى فيها خواطر فتى كبير القلب راجح العقل. غابَ عني شهرًا فأشفقت أن يكون قد مسه الضر وأردت أن أذهب إليه ولكن الخادم أحضر إليَّ كتابا تبينت خطه على غلافه ففضضته في شغف فإذا به يخبرني أنه سيكون عندي في المساء، ومرت الساعات ثقالا . .

حتى كانت الثامنة فإذا هو يطرق الباب ثم يفتحه في هدوء. ودخل عليَّ شاحبا مكدوداً واجما مهموما. ومد إليَّ

يده وكأنه قرأ في وجهي إشفاقي وتلطفي، فابتسم ابتسامة قصيرة ثم جلس وقد اتكأ بمرفقه على حافة المقعد وأسند رأسه إلى قبضة يده، وشملته كآبة مرعبة دق لها قلبي فأنا أعرفه ثائر العواطف واسع الرحمة يستوقف بصره بكاء بائس فتدمع مقلتاه، ويطرق أذنه أنين ملتاع فيملك عليه مشاعره وكثيراً ما أظهرت له إشفاقي فكان يضحك مني قائلا: لا حيلة في ذلك فتلك جبلته. ولقد كان يتهم نفسه بالطفولة ولكنه كان يعود فيفتخر بهذه الطفولة التي تملأ قلبه رحمة وحناناً. واطرق قليلا ثم رفع رأسه وقال وهو يضحك ضحكة غريبة تعبر عن الأسى والألم: (هو شهر، ولكنه قرن في حوادثه) وتالله لقد ألهب شوقي بتلك العبارة فأصخت بسمعي إليه وأقبلت بكليتي عليه وفهم هو من نظراتي أني استعجله فهز رأسه هزة عصبية وقال:

لله ما أغرب هذا المسرح الهائل مسرح الحياة الذي يموج بالناس في غير نظام وكلٌّ يلعب دوره حتى يسدل الستار عليه فإذا هو في طي الفناء وفي أغوار الأبدية. هذا ضاحك مستبشر وهذا فرح فخور.

وهذا بائس محزون وهذا حائر مشدوه وهذا مستسلم وهذا مغتر متطاول وهذا. . . وأخيراً يتساوى الجميع فيساقون في سكوت كلٌّ إلى حفرته.

قلت أمرك عجب أيها الصديق وهل هذا ما يحزنك هذا الحزن؟ لكأني بك قد اجتمعت فيك كل هذه الصور. ماذا أحزنك وعهدي بك مرحا خلي البال؟ وتنهد الفتى تنهدا عميقا وقال:

(على المسرح المرعب أو قل في زواياه التي لا تراها إلا الأعين البصيرة أو التي لا تراها الأعين إلا مصادفة، على هذا المسرح الصاخب المضطرب وفي هذه الزوايا المتوارية عن الأنظار يوجد من المآسي والآلام ما يتفطَّر له القلب حقاً.)

وقاطعته قائلا: هون عليك يا فيلسوفنا الصغير وما لك ولهذا الانقباض وأنت في زهرة العمر؟

فنظر إلي نظرة لوم وقال:

(ما حيلتي وتلك جبلتي؟ يراني الناس ضاحكا فرحا فيظنون أني خلو من الهموم، وتالله ما ضحكي إلا خداع مني لنفسي ومغالبة لشعوري، هو كالزهر الصناعي يغالط

بـه الطفـل نفسـه . . . ولكـن . . . أراك علـى حـق فسأضحك وسألعب وسأنسى كل شيء . . . نعم سـوف اضحك مع الضاحكين . . . وسوف لا أبكي بعد اليوم مع أحد أو على احد . . .)

وضاحكته استطلع دخيلة نفسه وحقيقة أمره فاعتدل في جلسته وتوثب وتحفز واستجمع قوته ثم قال في قوة وعزم :

هو دور لعبه أمامي ويا ليتني لم أره ولكـن مـا اسـخف لعبته هذه! . . . ليكن ما يكون وليكن ما قدر وهو كائن .

قلت ما الأمر؟ إنك تحيرني . فاستطرد في صوت أبح لم اسمعه منه قبل اليوم وقال :

(هن فتيات أربع جئن فسكنَّ في المنزل المجاور لنا وكان قبل مجيئهن تسكنه سيدة وابنها وهـو فتـى في نحـو الخامسـة والعشرين ولقد تبينت بعد مجيئهن إنهن أخوته وكان أول ما رأيتهن في ظهيرة يوم عندما عدت إلى المنزل ففتحت النافـذة كعادتي في كل يوم وإذا بي أراهن أمـامي لا يكـاد يفصـلني عنهن إلا نحو سبعة أمتار وما وقعـت أنظـارهن علـيّ حتـى جرين مسرعات إلى داخل الحجرة واقفلن الباب من ورائهن

إلا صغراهن وهي في العاشـرة تقريبًـا فقـد ظلـت تـرمقني بنظرات ساذجة بريئة وكأنها وكانت تجيد (لعبة اليويو) قـد أرادت أن تـريني مهارتهـا فأخـذت تلعبهـا وتنظـر إلـي ، فابتسمت فضحكت ودخلت إلى أخواتها صائحة لاعبة .

ومضيت أنا إلى بعض المجلات فجعلت اقلبهـا ولكـن نظري كان كثير الاتجاه دائمًا نحو هـذا المنـزل أو نحـو ذلـك الباب ، وأنت يا أخي تعرفني أحـب الاسـتطلاع ولا أكـاد استقر حتـى تصـل نفسـي إلى مـا تريـد فجلسـت اختـلس النظرات وأتظاهر بالنظر إلى الصحيفة التي في يـدي فرأيـت كبرى البنات وهي في العشرين تقريبا قـد وقفـت إلى البـاب فرأيتها ذات حظ من الجمال غير قليل غير أنه جمال شـاحب حزين .

ومرت أختها الصـغيرة أمـامي وهـي في نحـو السادسـة عشرة تكسو محياها سمرة خفيفة وهي فتاة ضاحكة والعينين مرحة جريئة النظرات سريعة الحركة خفيفة الـروح إلى حـد عظيم . أما وسطاهن فلم تظهر طول ذلك اليـوم . ولسـت أدري وأيم الله لم ضايقني ذلك ، وكل مـا أذكـره هـو إنـي

أحسست بانقباض وضيق لعدم ظهورها . على إني ما لبثت أن أضحك بل وسخرت من نفسي ومضيت إلى كتبي ونسيت من أمرها ومن أمرهن كل شيء . وفي صبيحة اليوم التالي نزلت إلى عملي فتبينت وجهها من خلال زجاج النافذة، جميلة رائعة الجمال دعجاء المحاجر بيضاء الوجه دقيقة الأنف حلوة اللفتة ناهدة الصدر .

وفي ظهر ذلك اليوم رأيتها واقفة فلم تهرب كعادتها بل رفعت إليّ بصرها ثم دخلت حجرتها في هدوء ورزانة . لا أكتمك يا أخي أني شعرت بميل نحو تلك الفتاة كان أول أمره معتدلا عاديًا . فقد أعجبني منها رشاقة جسمها واتزان حركاتها وتناسق أعضائها وغضارة بشرتها وجمال محياها وكانت عيناها الدعجاوان ترسلان من أشعتهما حرارة الشباب فتهز قلبي وتفتح جوانب نفسي حتى لقد صرت أجد في النظر إليها متعة وهناء أشبه بهناء النفس في حلم هادئ جميل . غير أن ما جذبني إليها حقا هو تلك النظرات الحزينة الهادئة التي كانت تتخلل نظراتها اللامعة القوية وتلك البسمات الخفيفة الفاترة التي كانت لا تلبث أن

يطفئها وجوم غريب وإطراق مؤثر . وازداد ميلي إليها إلى أن كنا صبيحة يوم فسمعت وأنا بين النوم واليقظة نحيبًا متقطعًا ولست أدري لمَ انصرف ذهني إليها لأول وهلة؟ فقفزت إلى النافذة فرأيتها ووجهها بين كفيها باكية تئن أنيناً موجعًا .

وأنا أترك لك أن تقدر لنفسك مبلغ ما نالني من الحزن في تلك اللحظة الرهيبة ولقد كدت أن أصيح بها أن كفكفي دموعك يا فتاة لولا أنها أفاقت سريعًا من غشيتها ومسحت دموعها في هدوء ثم نظرت إلى الشمس المشرقة نظرة حزينة يهتز قلبي كلما ذكرتها ودخلت بعد ذلك إلى مخدعها . ومنذ ذلك اليوم عرفت طعم الألم حقا وكانت تتمثل لي صورتها فيكتنفني من الألم اللاذع ما يزق شغاف قلبي ويحرك مكامن وجدي ولا سيما وقد تكرر ذلك منها كثيراً في الصباح أحيانا وفي المساء أحيانا أخرى .

وأخيراً . . . وأخيراً حمَّ القضاء ووجدت نفسي أسير تلك الفتاة الحزينة الباكية ولك أن تعجب مني ما شئت أنا الذي طالما سخرت من الحب وهزأت بالعاشقين، أنا الذي طالما وصفت لك الحب بأنه حلم من أحلام الشباب الخادعة

وسراب خلب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ، أو فورة دماء واضطراب مزاج لا أقل ولا أكثر ، ولكن الإنسان ضعيف لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا .

ولماذا أحببتها؟ أهو جمالها الساحر قد ملك على نفسي أم هو حزنها العميق قد صادف عطفا وحناناً في قلبي؟ ولكن مالي أبحث عن سر حبها ومتى كان الحب أمراً يقبل التعليل ويخضع للتحليل! مالي لا أقول أني أحببتها لأنني أحببتها ولتضحك بعد مني ما شئت ولكن لم تضحك؟ أليس الحب تفاعلا نفسانيا أو مزيجا روحانيا يأتي بكل سهولة وبغير أدنى ترتيب؟

أحسست باهتمامي بأمرها وإشفاقي عليها فكانت تشكرني بابتسامة عذبة وصرت أرى في عينيها ما يدل على الاعتراف بالجميل ، ولكني كنت لا أرى في نظراتها ما يدل على أنها تبادلني حبي وتطارحني هيامي ، أنها كانت نظرات شكر وامتنان وتالله كانت تؤلمني أحيانا ولكني كنت في سكرة الحب أعلل النفس بالآمال واترك للغد القول

الفصل والحكم الأخير . ولكن تصرمت أيام دون أن أجرؤ على مخاطبتها ولو بالتحية .

وراقبتها مرة فرأيتها تتأهب للخروج وثارت نفسي واعتراني جنون الشباب وامتدت يدي إلى ملابسي فلبستها دون أن اشعر بشيء أو أدري ماذا أفعل وسرت في أثرها وأن فؤادي ليخفق وأن نفسي كلها لتهتز إلى أن رأيتها تجلس وحدها على حافة قناة صغيرة كانت تقرب من المنزل وقد أطرقت قليلا ثم رفعت رأسها فإذا هي تراني أمامها فساورها مزيج من الدهشة والابتسام والخوف والارتياح والغضب والرضى . ولست ادري من أين جاءتني تلك الشجاعة في تلك اللحظة الدقيقة؟ فقلت في ثبات :

هل لي يا فتاة أن أسألك سؤالا صغيراً؟

فنظرت إلي نظرة عميقة فيها كثير من المعاني . ويح نفسي إني لأراها الآن ، أرى تلك العينين الدعجاوين وتلك التقاطيع الحلوة وذلك الفم الجميل وتينك اليدين الرشيقتين .

قالت وما سؤالك يا فتى؟

قلت : هل لي أن أعرف سبب حزنك وبكائك؟

فسرتْ رعدة قوية في أعضائها وتمشت صفرة فاقعة في وجهها وكأنني هززت بذلك السؤال كل كيانها وتمتمت بكلمات لم أسمعها ثم قالت :

شكرًا لك على اهتمامك بأمري . لست أستطيع أن أجيبك على ما سألت .

قلت ولكني أريد أن أعرف .

فعظمت دهشتها وبدا على محياها ذهول وخوف ثم قالت في حدة مصطنعة :

وما شأنك أنت والسؤال عن هذا؟

قلت أني . . . أني . . . أريد . . . أرجو . . .

فساورها الشك في عقلي فلقد قرأت هذا الشك في نظراتها ، وحدجتني بنظرة طويلة وقد اغرورقت بالدمع مقلتاها ثم أشاحت بوجهها عني فألحفت وتوسلت فقالت :

إليك عني واتق الله في فتاة ضعيفة بريئة .

قلت لا أستطيع البعد عنك .

ثم انهمرت دموعي فصدقت وقالت وهي تنتفض من شدة الاضطراب :

حسبتك أحد أولئك الشبان الذين لا أخلاق لهم ولقد هممت أن أصرفك في قسوة .

ثم نظرت إلي طويلا دون أن تتكلم فقلت في صوت خافت متقطع : ستكونين لي منذ الآن .

فتجهمت قليلا ثم ابتسمت ابتسامة فهمت من معانيها الندم والحسرة والألم وهزت رأسها كأنها تريد أن تقول لي إنك لا تدري من الأمر شيئا ثم قالت :

دعني بربك ولا تشغل نفسك منذ اليوم بأمري فلن يجديك ذلك نفعا وستبدي لك الأيام صحة قولي وصدق نصحي .

وكأنها ارتاعت لوقع ذلك على قلبي فقالت وهي تبكي :

آه ليتني أستطيع ! . ليتني أستطيع ! . اتركني أشكرك على . . . وغلبها الحزن والبكاء فأجهشت كما يجهش الطفل . فتظرفت إليها ولاطفتها ثم تناولت يدها فلم تمانع

ولما أردت أن أجذبها نحوي نهضت قائمة وسارت لا تلوي على شيء ولم تلتفت وراءها وغابت عن بصري في منعطف، فبقيت في مكاني جامداً كالصخر ثائراً مضطربا ثم مرت علي دقائق افتقدت فيها نفسي وحسي.

ومرت أيام وأنا أتجنب النظر إليها ما استطعت، أيام كنت أثنائها كالذي يتخبطه الشيطان من المس ولقد بلغ من نفسي أنني كنت أرى الأسرة كلها حزينة كأنما هم مقبلون على أمر خطير. ولما ضاقت بي الدنيا كتبت إليها اطلب عفوها وأبثها لواعج نفسي. وفي صبيحة يوم جلسن جميعا يبكين حول أمهن وأنا حائر مشدوه لا أدري من أمرهن شيء فناديت البدال فأقبل وهو فتى طيب القلب فقلت له: أتدري يا فتى سر هذا الحزن؟ وأشرت إليهن دون أن يرينني.

قال أو ما تعلم؟

قلت كلا.

قال إن صاحب المنزل قد (أوقع الحجز) عليهن أعقبه بائع الخبز بحجز مثله وفاء لما عليهن من الدين وقد قرب يوم البيع.

قلت وقد دق قلبي دقا عنيفا: هل مات أبوهنّ؟

قال خير لك ألا تعرف عنه شيئا، ثم قال:

كان أبوهن تاجراً من كبار التجار وكان عظيم الثراء ولكنه لم يرع النعمة وراح يقامر مرة ويسرف مرة ويتعاطى المخدرات بكثرة مخيفة وهو الآن نزيل السجن من سنتين.

وارتفع الدم بغزارة إلى وجهي وأحسست بحرارة كحرارة المحموم ومرت غشاوة فحجبت بصري ورأيت الجو بعد برهة اصفر مكفهرا ثم قلت:

وأخوهن؟

قال هو شاب عاطل لا يجد لنفسه عملا مع إنه يحمل شهادة عالية. مناه أصدقاء والده كثيراً بوظيفة ولكن أين هي الوظائف الآن؟ وكثيراً ما نصحناه أن يلجأ إلى عمل، أي عمل حر ولكن يظهر أن الأبواب سدت في وجهه.

قلت ولمَ لمْ يتقدم أحد لخطبة البنات من قبل؟

قال بلى خطبت الكبيرتان ولكن خطيبيهما تركاهما بعد ما جرى لأبيهن ما جرى. ثم سكت البدال وقال في ألم: مع أن البنت الوسطى ولعلك تعرفها ذات الشعر الأصفر كانت تحب خطيبها لدرجة الجنون.

فصرفته ودخلت حجرتي كئيبًا مُلتاعًا وذرفت الدمع سخينًا.

وسكت صاحبي برهة ثم قال في نبرات حزينة: أرأيت كيف يقضي هؤلاء الإغفال على أنفسهم وأموالهم وأولادهم؟ ألا قاتل الله الجهالة أنها أصل الفواجع والآلام.

ثم قال دونك فاسمع البقية، وبدت منه حركة عصبية ظاهرة في يديه وعينيه وصوته المبحوح وصدره المجروح، قال:

في صبيحة اليوم التالي سمع سكان البيوت المجاورة صراخا عاليا ففتحوا النوافذ فوجدوا الدخان يتصاعد من نافذة المطبخ في ذلك المنزل أما أنا فكأني كنت أعلم بما سيجري من قبل فسكت ولكنه كان سكوت اليأس وتجلدت ولكنه كان تجلد الإغماء.

وهرع الناس فدخلوا المطبخ فإذا هي ممدودة على الأرض لا تبدي حراكًا ولم يحترق منها إلا شعرها وقرر الطبيب أن الوفاة بالاختناق. وارحمة لك يا. . . حتى النار أكبرتك وأشفقت من أن تلهب هذا الجسد الطاهر ولكنك جدت بغدائرك الذهبية التي طالما قطعت إليها الأعين وخفقت لرؤيتها القلوب.

وهنا لم يتمالك صاحبي نفسه فأجهش كما يجهش الصبي وناولني قصاصة من الورق فقرأت فيها ما يلي:

وصلتني كلمتك الرقيقة يا صاحبي فضممتها إلى صدري وقبلت الخطاب من أجلك وذرفت الدمع سخينا شفقة عليك. سامحني واعف عني وستقابل في الحياة الأخرى حيث لا شقاء ولا عذاب وأرجو أن تستغفر لي الله في صلواتك، الوداع والشكر الجميل!

ولما تلوت تلك الورقة وجدته قد غلبه النوم وطول الجهد فأخذت رجليه برفق ومددتها على المقعد وعمدت إلى ملحفة فنشرتها عليه وخرجت على أطراف أصابعي

وتركته لينام علّه يجد في النوم بعض الراحة وسألت الله أن يشفق به في أحلامه وأن يهبه العزاء والسلوان.

خاتمة المطاف..!!

ـ كثيرة حقًا يا صديقي أطايب الحياة وملذاتها.. ولكني لن أترسم خطوط بعد الآن، فاستمتع أنت بأطايبها كيف تشاء، واقتنص من لذائذها كما يحلو لك، وثق أنك ستدفع الثمن في يوما ما...

ـ سحقا لك ولتفكيرك السقيم.. ماذا ترى في صيد ساقه لنا الشيطان، هل ترانا نرتكب جريمة بذهابنا إليها.. لقد رأيتها بعيني رأسك، أنوثة مبكرة، وجسدًا ناضجًا غضًا، وجمالا آسراً خلابًا.. تخيل أنك تعصرها عصراً بين ذراعيك، وتضغط صدرها الناهد.. لتتحطم مقاومتك التي لا أجد مبرراً لها ويستقيم تفكيرك، فتجد أنك مخطئ في مخاوفك التي ذهبت إليها.. هيا بنا، ولا تكن جبانًا رعديدًا تخاف أشياء لا وجود لها. إنها تقطن وحدها.. وهي التي دعتني إلى منزلها.. وأنا بدوري أدعوك لمرافقتي.. إن الساعة المرتقبة توشك أن تحين، فهيا.. فالشوق يكاد يقتلني...

ـ وفر عليك مشقة إغرائي . . فلم يعد معسول قولك ، وتشويقي ، ليفيدا معي . . فإليك عني . . واذهب وحدك ، فقد عاد إليَّ صوابي ، وثبت إلي رشدي . . فدعني أكفر عن آثامي التي اقترفتها بسببك . . ليتني دققت عنقك منذ عرفتك . .

ـ ها . . ها . . ها . . إنك وأيم الحق تدهشني كثيراً . فقد أصبحت عنيدا صعب المراس . . ثق أنك لن تجد الفرصة التي تكفر فيها عن آثامك . سأذهب إذن وحدي ، وأتركك لأفكارك ، وهي كفيلة بالقضاء على عنادك وإصرارك . . إن اقتناص اللذة أصبح من مستلزمات حياتينا ، أنا ، وأنت . . فلا تحاول الاستنجاد بإدارة حطمتها عشرون عاماً ، قضيتها غارقا لأذنك في الإثم والرذيلة . . .

ـ وأنت . . . ألا تذكر ؟

فتمهل قليلا كأنما يستجمع شوارد ذهنه . . ثم قال . .

ـ أجل . . . أذكر . . . أن صورة باهتة لها ما زالت عالقة بذهني . . . لم تكن كهؤلاء اللائي عرفتهن . . قد

باعت جسدها لمن سبقني ودفع الثمن . . . كانت نقية طاهرة الذيل إلى أن عرفتني . . .

ـ إنك معدوم الضمير . لقد دفعتها إلى التخلص من ثمرة فعلتك المنكرة ثم قضيت عليها بقسوتك وإعراضك . . ! !

ـ نعم . أخبرتني بذلك . ولكن ما شأني بذكريات أدراجها تعاقب السنين في لفائف العدم ، وتراكم عليها غبار تسعة عشر عاما انقضت . لقد مات الماضي يا صديقي ، فدعنا منه . . وإلى اللقاء عند (سلوى) الراقصة الحسناء . .

ـ لتذهب إلى الشيطان ، فلن نلتقيا ثانية . . لقد عقدت العزم على الرحيل بعيدا عنك . .

ـ كما يحلو لك . . آه . . . نسيت أن أترك لك العنوان .

وانتزع من مفكرته ورقة قذف بها إلى صديقه وهو يتابع في برود وعدم اكتراث :

ـ هاكَ العنوان . . وحذار أن تتأخر كثيراً ، فسنكون في انتظارك . . .

وغادره وصدى ضحكاته الساخرة يرن في أذنيه . . .

وصاح (جلال) به يستمهله . . ولكن صوته لم يصل إلى سمعه . . فاختطف معطفه وغادر المنزل بدوره .

. . . وهناك على الفراش . . كانت الفتاة مستلقية في استرخاء ، وقد ارتدت غلالة رقيقة ، يشع من تحتها بريق الفتنة الطاغية ، وسحر الجسد البديع التكوين ، وعبق جو الحجرة برائحة عطر نفاذة تدبر الرؤوس ، وتخدر الأعصاب . . وعلى قيد خطوة من الفراش ، وقف (كمال) بقوامه الفارع ، وجسمه الرشيق الفتى . . برغم أنه يحمل كاهله عبء أربعين عاماً سلخها من حياته . .

ونهضت الفتاة في استرخاء محبب ، ولم تلبث أن قفزت من الفراش في رشاقة وخفة ، وطبعت على شفتيه قبلة خاطفة ، وأسرعت بالابتعاد قبل أن تنطبق عليها ذراعاه ، ويهصر عودها الرطب بين أحضانه . . وراحت تنثني وتنفرد أشبه بحية تتلوى وهي تدور في الحجرة راقصة منتشية ، وقد لمعت عيناها ببريق عجيب . . .

وفارق (كمال) ثباته ، وثارت مشاعره ، واستيقظت غرائزه البهيمية فراح يضيق عليها الخناق حتى تمكن من

الإمساك بها . . . وجذبها إليه في عنف ، ورغبة جامحة . . فكاد يحطم عظامها . ولكنه ما عتم أن تراخت ذراعيه ، وتخلى عن الجسد الغض الطري الذي كان يدفئ أحضانه .

واستقرت نظراته الملتهبة على تلك الدميمة الجميلة التي ابتدعت على عجل ، ولاذت بالحائط ترتعد كريشة في مهب ريح صرصر عاتية . وتمالك واستجمع أشتات أنفاسه . . واقترب منها مترنحاً أشبه بسكير شرب حتى طفح وقد امتدت ذراعاه المتخاذلتان ، محاولا أن ينال عنقها ، فيزهق روحها الخبيثة . ولكن قواه خانته ، وتخلت عنه ، فهوى يتلوى من الألم وقد ندت عنه صرخة قهر وكمد .

ودبت الحركة في جسد الفتاة الجامدة . . فاندفعت إلى الأمام تصرخ في صوت مختنق متحشرج ، وقد أذهلتها رؤية الدماء . . فتلقفتها ذراعان خارج الحجرة ، وعادت بها إلى الداخل . . وارتفع صوت (جلال) يسأل في عجب : ماذا حدث يا . . . ؟! بيد أن الكلمات ماتت على شفتيه ، واتسعت حدقتاه فزعًا وهو يرى صديقه منكفئًا على وجهه وقد غاص بين كتفيه خنجر حتى مقبضه . .

وتهافت (سلوى) على الفراش مضعضعة الحواس، خائرة القوى ودفنت وجهها بين راحتيها، وقد شملت بدنها رعدة عنيفة. . وراحت تهذي كالمحمومة:

ـ لقد قتلته. . أجل قتلته يا أماه. . فلعلك الآن راضية في مثواك الأخير. . كانت رغبتك أن أنتقم لك، وها قد انتقمت. . فأنهضي لترى أي منقلب ذلك الفاسق. . . لقد غرر بك، وتركك تنوئين بعبء العار والفضيحة تسعة عشر عاما، قضيتها في عذاب مر أليم. . . لقد ظلت صورته منطبعة في ذاكرتي من خمس سنين مضت منذ آخر لقاء كان بينكما، حين انهال عليك ضربًا في قسوة ووحشية وغادرك، مقسمًا أنك لو عدت إليه ليقتلنّك شر قتلة، ولكنك لم تكوني في حاجة إلى العودة إليه، فقد فاضت روحك في تلك الليلة، وتركني فتاة لم تتجاوز الخامسة عشر بعد. . لا يعرف ذلك العربيد عنها شيئًا، ولا يعلم بوجودها. . . . فأقسمت أن أنتقم لك منه، ولو كرست حياتي كلها لذلك. . . ولقد فعلت. . . فليرحمني الله. ! !

وزاد ارتعاد جسدها، وعلا صوت نحيبها المؤلم، ونشيجها المكتوم. وانبعث صوت واهن، كأنه آت من أغوار سحيقة، فيه مرارة وفيه تساؤل وعجب:

ـ سلوى. . . ابنتي

ولكن القضاء لم يمهله، ولم يتريث به ليقول شيئًا آخر . . فسكنت حركته إلى الأبد.

ورددت جنبات الحجرة دقات حزينة منتظمة، كانت أشبه بأجراس قوية تدق في ذلك المكان الرهيب. . . تعلن بأن الليل قد انتصف.

واقترب (جلال) من الجثة المسجاة. . . وانحنى على الجسد العاني فحمله بين ذراعيه، وتريث قليلا ينظر إلى الفتاة، وقد انحدرت على خده دمعة كبيرة. . . وقال في صوت متهدج برج به الثأر:

ـ لقد انتهى. . مات صديقي. . . ولكنه منحني الفرصة التي أكفر فيها عن آثامي. . فأنا ذاهب، أجل ذاهب لأنال الجزاء. . فما أحقني به منك.

وتنفس عميقا، وكأنما أزيح عن عبء ثقيل. . . ثم
دار على غادر الحجرة بحمله الثمين. . !!

تمت

المحتويات

- السلوة. ص٥
- هذا العذاب. ص٩
- هل كان حبهما خطيئة. . ؟. ص١٣
- القلب الشاعر. ص٢٠
- القبلة الأولى و. . . الأخيرة!. ص٣٠
- ظمأ الروح. ص٤٨
- المغنية الضريرة. ص٥٧
- التفاحة المشؤمة. ص٦٠
- قبلة. ص٧٨
- العذراء الدميمة. ص٩٢
- رجل وامرأة. ص١٠٧
- كفارة. . . !!. ص١٢٣
- الميتة. ص١٣٠
- الباب المقفل. ص١٣٩
- دموع بريئة. ص١٤٤
- خاتمة المطاف. . !!. ص١٦١